تأليف

الإمام عبد الحميد الفراهي

صَاحِبُ تفسير

(نِظَامِ القُرآنِ وَتَأوِيلِ الفُرقَانِ بِالفُرقَانِ)

دار القلم

دمشق

الرأي الصحيح في من هو الذبيح

تأليف

الإمام عبد الحميد الفراهي
صاحب تفسير
(نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)

دار القلم
دمشق

بين يدي الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيسرّنا أن نقدم إلى القارئ الكريم طبعة جديدة لكتاب «الرأي الصحيح في من هو الذبيح» للإمام عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي رحمه الله تعالى. وهي الطبعة الثالثة للكتاب، فقد طبع المرة الأولى في الهند عام ١٣٣٨هـ، وكانت طبعة حجرية بالخط الفارسي. ثم بعد مضي زمن طويل أعيدت طباعته عام ١٤١٤هـ في الهند أيضاً، فلم يتمكن العلماء والباحثون في البلاد العربية من الاطلاع على الكتاب والاستفادة منه.

أما هذه الطبعة البهية التي تقوم بإصدارها دار القلم بدمشق والدار الشامية في بيروت، فهي لا تمتاز عن الطبعتين السابقتين في جمال المظهر فقط، بل اعتني بها من عدة جوانب مهمة: منها ضبط النص، وتقسيمه إلى فقرات صغيرة، وتوثيق النقول، بالإضافة إلى فهارس فنية متعددة صنعها أخونا الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي.

ونرجو أن نكون قد وُفّقنا في خدمة هذا الكتاب القيم، سائلين الله عز وجل أن ينفع به في فهم كتابه العزيز، والله ولي التوفيق.

١١/٢/١٤١٨هـ

د. عبيد الله الفراهي
الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح
أعظم كره ـ الهند

تقــديم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على ابن الذبيحَيْن وخاتم النبيين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فمن التحريفات الفظيعة التي ارتكبها اليهود في كتابهم، ما فعلوه في قصة إبراهيم عليه السلام، ولأهميتها الكبرى كان نصيبها من التلاعب أوفر من القصص الأخرى. فلم يكن الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ليرضوا بأن يذهب إخوانهم بنو إسماعيل بطرف من شرف بله اختصاصهم ببيت الله والمنحر والنبوة الخاتمة. فلم يألوا جهداً في لبس الحق بالباطل، وحاولوا أن يغيّروا بنية القصة كلها بالحذف والتبديل والتقديم والتأخير والكذب والافتراء بغياً وظلماً وحسداً.

وإذا أنعمت النظر في جهودهم لتحريف قصة إبراهيم عليه السلام وطمس معالمها وجدتها ترمي من قريب أو بعيد إلى نقطة واحدة، وهي تمويه قصة الذبيح. فإنها مركز الإشعاع في هذه القصة وقطب رحاها بل إنسان عينها. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره. فترى أمر الذبيح في كتابهم عجباً، فهو يستعلن من حيث يتعمدون إخفاءه. وكلّما أخفوا جانباً منه انكشف جانب آخر على رغم أنوفهم.

ولما رأى أهل الكتاب أن القرآن الكريم لم ينصّ على الذبيح، ومن ناحية أخرى وجدوا المسلمين يؤمنون برسل الله وأنبيائه جميعاً لا يفرقون

بين أحد من رسله، ولا يحملون في صدورهم حقداً وتعصباً على الملل الأخرى، ولا يتحرجون من الاستماع إلى كلام اليهود والنصارى في تاريخ الأوائل وقصص الغابرين وفيما لا يمس بعقائدهم وأصول دينهم، صادفوا فرصة سانحة لبث أكاذيبهم ودسّ أقاويلهم بين المسلمين. ومنهم ومن الذين أسلموا منهم تلقّيت الإسرائيليات التي ملأت كتب التفسير والتاريخ، وأثارت عِثْيَراً ضلّت فيه الحقائق بعض الأحيان أو كادت. وكم من قول صار أشهر الأقوال، كأنّه أحسنها، وإنما هو أضعفها وأوهنها.

والقرآن الكريم ينبّه على تحريفات أهل الكتاب ويقيم الحجة عليهم، ولكنّ له طرائقه وأساليبه الحكيمة في الاحتجاج والجدال بالتي هي أحسن. فمن غفل عنها، ولم يتدبر نظام الآيات حق التدبر خفيت عليه مقاصد الكلام، ويخشى أن تجوز عليه دسائس المبطلين.

وقد حدث ذلك في تفسير القرآن الكريم وخاصة في قصص النبيين، وبوجه أخص في قصة إبراهيم عليه السلام. فمع أن أمر الذبيح لم يكن من الدقة والخفاء بمكان كبير، جنح بعض كبار المفسرين رحمهم الله إلى أنه إسحاق عليه السلام، وانتصر لقوله كالإمام ابن جرير (ت ٣١٠هـ). ومنهم من اكتفى بسرد الروايات دون نقد. ومنهم من ذكر القولين دون ترجيح إلاّ أنه قدّم القول بكون الذبيح إسماعيل مما يشير إلى رجحان ذلك عنده. وبعضهم قال إن ذلك هو الأظهر.

أما الذين صرحوا ببطلان هذا المذهب، ولم تغرّهم الأقوال المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، فهم العلماء المحققون النقّاد الذين كانوا من أهل العلم بالقرآن، وقد اطلعوا على كتب اليهود والنصارى أيضاً، نحو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وتلميذه الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ) رحمهما الله. فيقول ابن القيم في زاد المعاد:

«وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقّى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم!»[1].

ونص كلام شيخ الإسلام في الفتاوى: «... وفي الجملة فالنزاع مشهور *ولكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل. وهذا الذي عليه الكتاب*، والسنة، والدلائل المشهورة، وهو الذي تدلّ عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب»[2].

ومنهم الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) الذي يقول في تفسيره: «وما أظن ذلك ـ يعني القول بأن الذبيح إسحاق ـ تُلقي إلاّ عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلّماً بغير حجّة»[3].

وكان يجب بعد هذا القول الفصل في القضية أن ينحسم الخلاف فيها، ولا يتلجلج أحد في هذا الحق الأبلج، ولكن للروايات سلطاناً على النفوس، وتعلقاً بالقلوب. والذين يعتمدون عليها أكثر من اعتمادهم على نظام الآيات وسياق الكلام ودلالات الألفاظ والأساليب يشقّ عليهم التخلي عنها، فألّف العلامة السيوطي (ت ٩١١هـ) بعدما اطلع على كلام الإمام ابن القيم رسالةً في الذبيح سماها «القول الفصيح»[4] ولكنه ختمها بقوله: «وكنت ملت إليه ـ يعني القول بأنّ الذبيح إسحاق ـ في علم التفسير. وأنا الآن متوقف في ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم»[5]، فأراد

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٧١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤/ ٣٣١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٦.

(٤) هذه الرسالة ضمن كتاب الحاوي للفتاوي للسيوطي: ١/ ٤٩٢ـ٤٩٨.

(٥) الحاوي ١/ ٤٩٨.

السيوطي ـ رحمه الله ـ كما ترى أن يفصح فأعجم وجمجم. ولعل وقوفه على كلام ابن القيم هو الذي أدّاه إلى التوقف في هذه المسألة، ولولا ذلك لظلّ على مذهبه السابق الذي نسبه القرطبي للأكثرين![١].

وقد تناول عدد من العلماء غير السيوطي مسألة الذبيح في رسائل مفردة نحو مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) في «كتاب الاختلاف في الذبيح من هو؟»[٢] والقاضي أبي بكر ابن العربي (ت ٥٤٣هـ) في رسالته «تبيين الصحيح في تعيين الذبيح»[٣]، وتقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ) في رسالته «القول الصحيح في تعيين الذبيح»[٤]. وابن طولون (ت ٩٥٣هـ) في رسالته «الميمون التصريح بمضمون الذبيح»[٥] وعلي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) في رسالته «القول المليح في تعيين الذبيح»[٦].

وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل كرسالة السبكي. أشار في أولها إلى بعض الأدلة التي احتج بها القائلون بأن الذبيح إسماعيل، ثم قال: «وهي أمور ظاهرة لا قطعية، وتأملت القرآن، فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه، ولم أر من سبقني إلى استنباطه. وهو أن البشارة مرتين. . .» وفصّل هذا الدليل، ثم ردّ ما يمكن إيراده عليه. وهذه الرسالة في ورقة واحدة[٧]. ورسالة السيوطي التي مرّ ذكرها في ثلاث ورقات. وقد وصلت

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٩٩.
(٢) معجم الأدباء: ١٩/ ١٧٠، إنباه الرواة للقفطي٣: ٣١٦، وذكر أنه في «جزء».
(٣) ذكرها في كتابه أحكام القرآن: ٣/ ١٦١٧ ويدلّ كلامه في الأحكام أن الذبيح عنده إسماعيل.
(٤) كشف الظنون: ٢/ ١٣٦٤.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ١٩١٩، وقف عليها مؤلف الكشف فقال: «صرّح فيها بأن الذبيح إسماعيل» ونسخة منها في التيمورية.
(٦) المرجع السابق: ٢/ ١٣٦٥.
(٧) وقد علقها السبكي سنة ٧٥١ هـ، ونسخة منها ضمن مجموع مخطوط في مكتبة عارف=

رسالتا القاضي ابن العربي وابن طولون أيضاً لكن لم نطلع عليهما[1].

ويبدو أن الرسائل المذكورة كلها كانت لطيفة صغيرة الحجم. أما هذه الرسالة التي نقدمها اليوم فهي كتاب حافل في هذا الباب. وقد سبق ما أشار إليه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ من أن القول بكون الذبيح إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجهاً. ولكن لم نقف على تلك الوجوه ولا على نصفها فيما وصل إلينا من مصنفات العلماء قبله أو بعده، وإنّما وجدنا مصداق كلامه في هذا الكتاب القيم، فإنه جاء حقاً بأكثر من عشرين دليلاً على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، ونصفها من التوراة المحرّفة التي لا يزال اليهود والنصارى متمسكين بها. وما رأينا من هذه الوجوه المستنبطة من التوراة في غير هذا الكتاب إلاّ وجهاً أو وجهين.

وهو كتاب فريد لإمام نابغة من جهابذة علماء الإسلام، أراد الله به خيراً فَفَقّهه في الدين وعلّمه التأويل، وفتح عليه من علوم كتابه العزيز ما شاء، فكان في فهم القرآن منقطع القرين. كان غاية بل آية في حدّة الذكاء، ووفور العقل، ونفاذ البصر، وشدّة الورع، وحسن العبادة، وغنى النفس، ولئن تأخّر به زمانه لقد تقدم به علمه وفضله، وهو الإمام المعلّم عبد الحميد الفراهي رحمه الله (١٢٨٠ ـ ١٣٤٩ هـ) صاحب تفسير «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان».

وتصدى الإمام الفراهي رحمه الله في كتابه هذا لإبطال ما زعم اليهود من أن الذبيح إسحاق عليه السلام، والكشف عن تحريفاتهم لإثبات ذلك في التوراة. وقد يظن بعض الناس أن هذه المسألة مسألة فرعية جزئية من التاريخ، وسواء أإسماعيل كان الذبيح أم إسحاق، فكل من أنبياء الله

= حكمت برقم ٢٧٢ مجاميع (ق ١٣٤/ ب ـ ١٣٥/ أ).

(١) انظر قانون التأويل لابن العربي، مقدمة المحقق: ١٥٤.

ورسله. فليست لذلك أهمية شرعية تستوجب اهتماماً كبيراً كهذا. ولكنه ظن لا نصيب له من الصحة.

وقد شرح الإمام الفراهي -رحمه الله- في مقدمة كتابه الأسباب الداعية إلى تأليفه، وهي ثلاثة أمور:

أولها: هو مكانتها العظمى في ملتنا، وتكلم على خطر هذه المسألة في تاريخ الإسلام وأهميتها لفهم حقيقة الإسلام نفسه كلاماً في غاية النفاسة. وهو باب عظيم من علم أسرار الدين. ولقد وددنا أن نلخص هذا الكلام هنا، ولكن تعذّر ذلك لما يمتاز بيان المؤلف من شدة الإيجاز وحسن الرصف، فكلّ ما قاله هو الخلاصة بعينها. يقول في آخره: «**فمن زعم أن هذا الابتلاء وقع على جبل أرشليم، وقرّب عليه إسحاق عليه السلام كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمى وحقيقة هذا الذبح ومكانته في ملتنا**».

والأمر الثاني: «أن في القرآن آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه المسألة وما يتعلق بهذا الذبح... واستيفاء البيان في كتابنا «نظام القرآن» تحت كل آية تشتمل على ذلك الأمر، يفضي إلى تكرار وإطناب. فأفردت له كتابنا هذا، وجعلناه من مقدمة تفسيرنا، لكي نحوّل إليه عند الحاجة».

والأمر الثالث: «أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك. فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل والكعبة... وقد بين الله قصة هذا الذبح في التوراة ولكن اليهود قد دسّوا فيها أهواءهم فأصلحها القرآن... ومع أن الناقدين من علماء المسلمين من أهل العلم والنظر -كما ستعلم- قد استدلّوا بنصوص التوراة أنفسها على كون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، فإن اختلاف كلمتنا جعل هذا الأمر

العظيم من الأمـور التي لا يعتدّ بها، بل عدم اعتدادهم بـه أمكـن اختلافهم فيه. فإنّهم لو علموا ما لهذا الذبح من المكانة في ملتنا لتحذّروا عن الغفلـة في أمره. فلهذه الأمور الثلاثـة التي كلها على غايـة الأهمية احتجنا إلى كشف القناع عن هذه المسألة».

وبعد هذه المقدمة يشتمل الكتاب على ثلاثة أبواب وخاتمة. الباب الأول في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب. والباب الثاني في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده. والباب الثالث فيما روي من الآثار وأقوال السلف وآراء المفسرين والاستدلال بأحوال العرب وأقوالهم قبل الاسلام.

وقدّم الاستدلال بالتوراة لأنه أراد إقامة الحجة على أهل الكتاب من كتابهم. وبدأ هذا الباب بفصلين تمهيداً لاستدلاله من التوراة: الفصل الأول في معارف تتعلق بشريعة القربان وبالوحي الذي يكون في الرؤيا وهي عشرة أمور. والفصل الثاني في ذكر أصول ومبادئ للنظر في صحف اليهود. ثم جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة التي عند اليهود على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام. ومعظم هذه الدلائل كما قلنا جديدة لم يُسبق إليها.

وكشف المؤلف رحمه الله في هذا الباب عن كثير من تحريفات اليهود في كتابهم، وفسّر بعض نصوص التوراة مما استغلق عليهم أو تجنبوا بيانه كتماناً للحق وظناً بأنه لن يفطن أحد لوجه الاحتجاج به.

ومن أهم التحقيقات العلمية التي تضمنها هذا الباب تحقيقه لموضع الذبح. وقد تعرّض اسمه في صحف اليهود لتحريف شديد في قراءته وتفسيره. فجاء في سفر التكوين(٢٢ : ٢) حسب الترجمة السبعينية « إلى الأرض العالية » وحسـب النسـخة العبرانية « إلى أرض مـوره » وفي

ترجمة أقيلا «الأرض المستعلنة» وترجمة سماخوس «أرض الرؤيا». وفي السفر نفسه في مكان آخر (١٢ : ٦) في السبعينية «البلوطة العالية » وفي العبرانية «ميدان موره». أما في القراءة فقرأوا «مريّاه» و«موريّاه» و«موره».

وقد أفاض المؤلف في ذكر هذه التحريفات، ثم أورد أقوال بعض علمائهم في الاعتراف بالتحريف في هذه الكلمة والردّ على زعم اليهود بأن هذا الموضع هو مكان هيكل سليمان في أورشليم وزعم النصارى بأنه موضع صلب المسيح حسب معتقدهم. وأشار إلى اقتراح بعضهم أن هذا الموضع على جبل جريزيم، وردّ عليه. ثم نبّه المؤلف على مداخل التوهم والتحريف في الكلمة مستدلاّ بقواعد اللغة العبرانية ووجود التشابه الشديد بين الحروف في الخط العبراني مما يسهل عمل التحريف لمن يتعمده.

ثم أثبت المؤلف رحمه الله أن الصواب في اسم موضع الذبح هو «المروة» فقال: «إن ذلك الموضع هو الذي في مساكن بني إسماعيل ولم يزل مشهوراً باسم المروة. ويؤيد ذلك ما في صحفهم. فإنه قد جاء في سفر القضاة (٧: ١) : «وكان جيش المديانيين شماليّهم عند تلّ موره في الوادي، فتبين أن هذا تلّ موره كان معسكراً للمديانيين. ولا شك أن المديانيين هم العرب. واسم مديان يطلق عليهم وعلى أرضهم. وقد جاء التصريح في صحفهم بأن مديان هم الإسماعيليون».

ثم أورد نصوصاً من التوراة وقال: «فبعد ذلك أي شيء يبقى من دعواهم بأنه على جبل أورشليم؟ أم أي شيء يدفع ما لم يزل الإسماعيليون يعرفونه بالمروة؟ وكانت عندهم أشهر من نار على علمٍ، وكانوا يطوفون بها في حجّهم. وحين خاطبهم القرآن في أمر الطواف لم يحتج إلى تعريفها، ولكن بيّن أنها من شعائر الله. وهناك أشار إلى تحريف أهل الكتاب في

أمرها وسوء صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله من بعدما بيّنها الله تعالى في كتابهم».

فيرى المؤلف رحمه الله تعالى أن في قوله تعالى في سورة البقرة (١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ بعد قوله تعالى (١٥٨) ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ تلميحاً إلى ما حرفت اليهود في اسم المروة ورسمها وموضعها لحسدهم إسماعيل وذريته، فردّ الله عليهم بإشارة لطيفة. وتفصيل ذلك في الفصل الثاني والثلاثين.

ولخّص في آخر الفصل قصة الذبح فقال: «فتطابق الأمور يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام جاء من جهة الشرق، وترك غلاميه على جبل قريب، وذهب بابنه الوحيد إسماعيل إلى المروة ساعياً وملبّياً لدعوة الرب. وكان مسكن إبراهيم عليه السلام إلى جانب الصفا كما جاء في سفر التكوين (١٢ : ١ ـ ٨) حيث جاء ذكر رحلته إلى أرض موره في رواية أخرى لقصة الذبح. ولكنهم أسقطوا منها ذكر هذا الذبح، واكتفوا بذكر رحلته، فلم تزل الصفا والمروة في بني إسماعيل قائمتين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع الاسم والرسم والمناسك الدالّة على تلبية إبراهيم للرب وسعيه لإتمام أمره. وليس لليهود والنصارى شيء من هذه المناسك..».

وقد أعان المؤلف رحمه الله على القيام بهذا التحقيق العلمي الرائع مُدارسته لكتب اليهود والنصارى، ومعرفته للغة العبرانية، واطلاعه على الدراسات الحديثة التي قامت على العهدين القديم والجديد.

أما الباب الثاني الذي هو في وجوه الاستدلال المأخوذة من القرآن الكريم وحده، فبدأه المؤلف رحمه الله كالباب السابق بذكر أصول

ومبادئ للتدبر في قصص القرآن وحججه. وهي أمور مهمة لفهم منهج القرآن الكريم في إيراد القصص والاحتجاج في المعقول والمنقول. والوجوه التي استدلّ بها المؤلف في هذا الباب جلّها منثور في كتب السابقين ولكنها جاءت في هذا الكتاب على أحسن وجه من التحرير والتلخيص والتشييد.

ومن عجيب ما استدلّ به المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدم تسمية الذبيح في القرآن الكريم. فقد جعل ذلك حجة على كون إسماعيل هو الذبيح، فقال: «ليس لقائل أن يقول: إن كان إسماعيل عليه السلام هو الذبيح فلم لم يصرح القرآن به؟ فإنّ هذا السؤال عائد عليه في أمر إسحاق عليه السلام على سواء، مع أنه لم يكن مانع لذكره، وأما إسماعيل عليه السلام فلعدم التصريح باسمه وجوه من الحكمة».

ثم فصل القول في هذه الوجوه، وهي أربعة أولها: «أنه من عادة القرآن الصفح والإعراض عن اللجاج الذي لا ينفصم لكيلا يشتغل الخصم به، ويترك ما يلقى إليه من الحجة الدامغة. وقد أدخلت اليهود اسم إسحاق عليه السلام في قصة الذبح، فلو صرح القرآن بخلاف ذلك لتمسكوا بما في كتبهم، وجادلوا بباطلهم، وأنكروا بما جاء به النبي لخلافه الصريح بما عندهم. فالقرآن يلزمهم ما كان موجوداً في صحفهم أو كان ظاهراً بينا عند العقل لكيلا يترك لهم متمسكاً وعذراً، وقد أشار إلى ذلك في غيرما آية تارة يخاطب النبي ويأمره بالصفح عنهم، وتارة يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلا بحسن القول، وتارة يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلي مسلماتهم».

ثم أورد أمثلة على ذلك وقال: «وبالجملة فإنّ القرآن قد اجتنب مجادلتهم فيما تمسكوا بظاهر الكتاب، وفي ذلك حكمة بينة لعدم

التصريح باسم الذبيح، فلو كان هو إسحاق عليه السلام لم يكن مانع من تسميته ههنا».

ومن أروع فصول هذا الباب الفصلان الأخيران اللذان استدل فيهما المؤلف رحمه الله بما صرّح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل عليه السلام، وكلاهما من جوامع الأدلّة. وسترى فيهما كلاماً بديعاً في تفسير معاني الآيات وحسن نظامها ومحكم ترتيبها وبعيد مراميها ولطيف أسلوبها.

وختم المؤلف رحمه الله هذا الباب بقوله: «ولو فصلناها ـ يعني الأدلّة ـ لصارت أكثر عدداً ولكنا اخترنا الثلاثة عشر كما اخترنا في القسط الأول رعاية لسني عمر إسماعيل عليه السلام حين قدّمه الخليل عليه السلام قرباناً لربه».

أما الباب الثالث الأخير من هذا الكتاب فأورد فيه المؤلف أولاً ما روي عن الصحابة والتابعين والسلف الأقدمين في هذه المسألة، ثم ذكر ما قاله ابن جرير رحمه الله وهو القائل بأن الذبيح إسحاق عليه السلام، وردّ على احتجاجه. ثم ذكر في فصل مستقلّ ما قاله الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره تبعاً للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ونبّه على بعض مواضع الوهم في كلامهما. ولخّص في فصل تالٍ كلام ابن كثير من تفسيره وقال: «لا يخفى أن ابن كثير رحمه الله أتى بأكثر الأدلة الظاهرة. ولم نجد في المتأخرين من زاد عليها، فلا حاجة إلى استقصاء أقوالهم، ولكن نذكر في الفصل التالي من أقوال المشهورين منهم ما يكفي للدلالة على مذاهبهم في هذه المسألة». فذكر أقوال البغوي (ت ٥١٠هـ) والبيضاوي

(ت ٦٨٥هـ) والنسفي (ت ٧٠١هـ) والخازن (ت ٧٤١هـ) والجلال المحلّي (ت ٨٦٤هـ) وأشار إلى رسالة السيوطي (ت ٩١١هـ). والظاهر أن المؤلف رحمه الله لم يقف عند تأليف كتابه على كلام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد، مع شغفه بمصنفاته، ومصنفات شيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله.

وللمؤلف رحمه الله كلام جميل في هذا الفصل في الدفاع عن العلماء الذين لم يتخذوا موقفاً قوياً في هذه المسألة، فاكتفوا بذكر القولين دون الجزم بأحدهما أو بمجرد الترجيح، وقد أحسن كل الإحسان إذ صيّر ذلك من مناقبهم فقال: «والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أن علماءنا رحمهم الله تعالى براء من التعصب لنبي من الأنبياء. ثم إنهم لا يجترئون على القطع في تأويل القرآن ما لم يكونوا على بصيرة فيه، ثم إن المتأخرين منّا على غاية مراعاة الأدب للسلف. فإذا وجد أحدهم اختلافاً من السلف في تأويل أمسك عن القطع بأحد وجوهه، واكتفى بالإشارة إلى ما هو المرجح عنده، ومع ذلك من كان على بينة من أمره جاء بقول فصل. وفي اختيار ابن جرير رحمه الله أن إسحاق عليه السلام هو الذبيح لأكبر شهادة على أن المسلمين لم ينظروا في هذه المسألة نظر المتعصب المعاند، وكذلك الشهادة في عدم القطع من بعضهم بأحد الجانبين».

وآخر فصول هذا الباب في الاستدلال بأحوال العرب قبل الإسلام وأقوالهم تكملة للقرائن التاريخية التي وردت في البابين السابقين، وتفصيلاً للإشارات التي تضمنها قوله تعالى في سورة آل عمران في أمر بيت الله: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ . . . ﴾ الآية.

والكتاب كله من أوله إلى آخره نمطٌ عالٍ من التحقيق والتأليف، ومثل خليقٌ بالاحتذاء في ادب الخلاف والمجادلة الحسنة، في أسلوب

علمي يتميز ببراعة التحليل ودقة الاستنباط، وقوة الاستدلال، وحسن التأتي للمعضلات، ونقد الآراء في تواضع جمّ واحترام تامّ لأصحابها، مع إحكام النسج، ونهاية الإيجاز، ونصاعة البيان.

وبعد، فكان من حظ هذا الكتاب القيم أن الإمام الفراهي رحمه الله تعالى قد أنجز تأليفه خلافاً لكثير من كتبه، وسماه اسماً تاريخياً يشير إلى سنة ١٣٣١هـ. وقد طبع الكتاب في حياته طبعة حجرية بالخط الفارسي في مطبعة معارف بأعظم كره سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) ثم ترجم باللغة الأردية سنة ١٣٥٧هـ وصدرت لهذه الترجمة عدة طبعات. وقد ترجم قبل سنتين باللغة الإنكليزية أيضاً. أما الطبعة العربية فقد نفدت قبل زمن طويل، ولم يقدر لها أن تصل إلى العالم العربي لقلة الوسائل وضعف المواصلات في ذلك العهد.

ويسعدنا اليوم أن نقدم طبعة ثانية[1] نرجو أن تكون لائقة ـ إلى حد ما ـ بمكانة هذا الكتاب الذي تتصل مباحثه بعدّة علوم: فهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ودراسة العهد القديم، وعلم أسرار الدين ديناً قيماً ملّةَ إبراهيم.

اللهم اغفر لمؤلفه الذي قضى أكثر من ثلاثين ربيعاً من عمره في تدبر كتابك الذي كان ربيع قلبه ونور عينه، فنضّر وجهه، وأكرم نزله، وأجزل مثوبته، واجعله من السابقين المقربين في جنات النعيم.

اللهم وفّقنا لفهم كتابك، واتباع سنة نبيك، والعمل بما يرضيك، واجعلنا من الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه.

---

(١) صدرت من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، أعظم كره، الهند عام ١٤١٤هـ.

وصلّ اللهم على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

محمد أجمل أيوب الإصلاحي

المدينة المنورة

لثمان خلون من شعبان عام ١٤١٢هـ

* * *

ترجَمَة المؤلف[١]

بقَلَم: العلاَّمَة السيّد سُليْمان النّدوي رحمَه الله

الدنيا دار العجائب، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه، وحدوث ما لم يخطر ببالك، بعثنا هذه الرسالة[٢] للطبع، وصاحبها حيّ يُرزق، فلم يمضِ شهر حتى فوجئنا بموته، وفجعنا بانخرام حياته، وكان رحمه الله آيةً من آيات الله في حدّة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودَماثة الخلق، وسَداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله.

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي، ولد رحمه الله سنة ١٢٨٠ هـ في قرية (فَرِيها) من قرى مديرية (أعظم كره) في الولايات المتحدة[٣] بالهند، وكان ابن خال علاّمة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني[٤]، تغمّده الله برحمته.

---

(١) كتبت هذه الترجمة بعد وفاة المؤلف رحمه الله بشهرين، ونشرت في آخر كتابه «إمعان في أقسام القرآن» (الطبعة السلفية) وقد أثبتناها هنا بتلخيص يسير، وعلقنا عليها بما يوضّح بعض الأمور. أما زياداتنا ـ وهي قليلة ـ فجعلناها بين حاصرتين [ ] ـ الناشر.

(٢) يعني كتاب الإمعان

(٣) ولاية أُتَّرابَرَادِيش (u.p) الحالية.

(٤) مؤلف «الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان» بالعربية، والسيرة النبوية الشهيرة، والفاروق، والمأمون، وشعر العجم، والجزية، وغير ذلك بالأردية. توفي رحمه الله سنة ١٩١٤م.

واشتغل بعدما ترعرع في طلب العلم، فحفظ القرآن، وقرأ ـ كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند ـ اللغة الفارسية، وبرع فيها، فنسج [وهو ابن ستة عشر عاماً] قصيدة فارسية صعبةَ الرديف، بارَى فيها شاعرَ الفارسية الطائرَ الصيت خاقاني الشرواني [ت ٥٩٥هـ] فأتى فيها بما أعجب الشعراءَ.

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني، وهو كان أكبر منه بست سنين، فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها، ثم سافر إلى (لَكْنَؤُو) مدينة علم الولايات المتحدة، وجلس في حلقة الفقيه المحدّث الإمام الشيخ أبي الحسنات عبد الحي اللكنوي [ت ١٣٠٤هـ] صاحب التعاليق المشهورة، ثم ارتحل إلى (لاهور)، وأخذ الأدب العربي من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق في ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسَن السَّهارَنْفُوري [ت ١٣٠٤هـ] شارح الحماسة، [والمعلقات شرحاً ثلاثي اللغات]، وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور، فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء، قرأ دواوينَ الجاهلية كلّها، وحلَّ عُقَد مُعضِلاتِها، وقنَصَ شواردَها، فكان يقرض القصائد على مِنوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سَبك بلغاء العرب وفصحائهم.

ثم عرّج على اللغة الإنكليزية، وهو ابن عشرين سنة، ودخل في كلية عليكَره الإسلامية[1]، ونال بعد سنين شهادة ب ـ أ[2] من جامعة (الله آباد)، وامتاز في الفلسفة الحديثة، فصار مجمع البحرين و﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، كان عالماً بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية

---

(١) التي أصبحت فيما بعد (جامعة عليكَره الإسلامية).
(٢) B.A. (الليسانس).

والإنكليزية فاجتمعت فيه خصالُ الجنسَين : المتقين من العلماء الراسخين، والمتنوّرين من الفضلاء الكاملين.

وبعدما قضى وطَره من طلب العلم، واستقَى مِن حِياضه، ورتَع من رياضه، نُصِبَ معلّماً للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراشي[1] عاصمة السند، فدرَّس فيها سنين، وكتَبَ وألَّفَ، وقرَضَ وأنشَد.

ثم انقطع إلى تدبّر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، فقضَى فيه أكثر عمره، ومات وهو مُكِبّ على أخذ ما فات من العلماء، ولفّ ما نشروه، ولَمِّ ما شتّتوه، وتحقيقِ ما لم يحقّقوه، فكان لسانُه ينبَع علماً بالقرآن، وصدرُه يتدفّق بَحثاً عن مشكلاته، وقلمُه يجري كشفاً عن معضلاته، وهو كان يعتقد أنّ القرآنَ مرتّبٌ بيانُه، ومنسّقةُ النظام آياتُه، وكلُّ ما تقدم وتأخّر مِن سُوَره وآيه، بُنِي على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام، فلو قُدِّم ما أُخِّر، وأُخِّر ما قُدِّم لبطل النظام، وفسدت بلاغة الكلام.

وكان يرى أنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضاً، فأعرَض عن القصص وما أتى به المفسِّرون من الزخارف والعجائب، هذا كان دأبه في تفسيره الذي سماه (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، فاستمتع بها في مباحثه.

وانتخِبَ [سنة ١٩٠٧م] معلماً للغة العربية بكلية عليكَره الإسلامية، *وكان يومئذ أستاذ اللغة العربية بها المستشرق الألماني الشهير يوسف* هارويز[2]، فالمستشرق استكمل منه العربية، وهو قرأ عليه العبرانية، وبعد سنين نُصِبَ أستاذاً للغة العربية بجامعة (الله آباد)، وبقي هناك

---

(١) مدينة كراتشي Karachi.

(٢) J. Horovits جوزيف هوروفتس (ت ١٩٣١ م).

أعواماً، حتى انتقل منها إلى حَيدر آباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التي كانت تخرِّج قضاةَ البلاد ووُلاتها.

وهو الذي ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرس العلوم الدينية بالعربية، والعلوم العصرية بالأردية، وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل، ونال القبول من مالكي أزمّة الأمور والجمهور، وصادقَ عليه دولة الأمير الأعظم النواب نظام الملك آصف جاه السابع عثمان علي خان[1]، وسميت بالجامعة العثمانية، وهي يومئذ من أحدثِ جامعات العالم سنّاً، ولكن أعجبها نظاماً.

ثم استقال من خدمته، ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسّس في قرب من قريته مدرسةً عربيةً دينية سميت (مدرسة الإصلاح)، فكان ينظر في شؤونها، ويُجريها على أمثل طريق اخترعه، وأحسن أسلوب أبدعَه، ومن أجَلِّ مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن، والبحث عن معانيه ونظمه وأحكامه وحِكَمه [وتدريس الحديث النبوي والفقه الإسلامي بعيداً من التعصب المذهَبي].

وكان رئيساً للجنة المديرين لـ(دار المصنفين) التي أُسِّست تذكاراً لأخيه الشيخ شبلي النعماني، فكان هو أحد مؤسسيها، وكان يبذل أوقات فراغه في التأليف، والتدوين، والنظر في القرآن ومعانيه، وإلقاء دروسه على تلامذته الملتفّين حوله، فسمح خاطره المتدفق بما بخل به القدماء من علومه، وفرّق على العُفاةِ ما لم يجمعه الأوائل في صحفهم.

كان رحمه الله منقطعاً إلى هذا البرّ من العمل، حتى أتاه الأجل في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ (الحادي عشر من نوفمبر سنة

---

(١) آخر أمراء دولة حيدرآباد، وفي مطبوعة الإمعان: «الثامن»، وهو سهو.

١٩٣٠م)، مات غريباً في مدينة (مَتهورا)[١] كعبة الوثنيين في الهند، كان رحل إليها عليلاً يستشير طبيباً نِطاسيّاً من أبناء بلدته موظّفاً فيها، فلم ينجَعه الدواء، ولم يُرزَق الشفاء، وأنهكتْه العلّة التي سدِكتْ به، وخابت العمليّة التي قام بها الطبيب، وهو محتسبٌ صبراً، مطمئنّ شكراً، يجود بنفسه وهو يتلو القرآن، ويشكر الرحمن، حتى أسكتَ الحِمَامُ ناظمَ الكلام إلى يوم القيامة، و﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، صدق قول القائل: عاش حميداً، ومات شهيداً.

خلّف من آثار خاطره ذخيرةً لا تفنَى، وعلوماً لا تبلَى، وأكثرها بالعربية.

فمما طبع من كتبه:

١ ـ أسباق النحو، جزآن بالأردية[٢].

٢ ـ وديوانه الفارسي[٣].

٣ ـ وخِرَدْنامَه، كتابٌ نظمَ فيها حكمةَ سيدنا سليمان عليه السلام بالفارسيّة القُحّة لا تشوبُها كلمةٌ عربيةٌ.

٤ ـ مقالة في الشفاعة والكفّارة بالإنكليزية، ردّ بها على بعض علماء النصارى.

والبقية الآتية كلها بالعربية:

٥ ـ الرأي الصحيح في من هو الذبيح.

---

(١) Mathura.

(٢) لتعليم النحو والصرف بطريقة جديدة سهلة عجيبة، وقد أثبتت تجربة أكثر من خمسين عاماً أن هذين الكتيّبين أحسن وأنفع للناطقين بالأردية من الكتب التقليدية الرائجة في المدارس الهندية.

(٣) صدرت طبعته الثانية بعنوان (نَوَاي فَهْلَوِي).

٦ ـ وتفسير سُوَرٍ من القرآن، وهو جزء من أجزاء تفسيره نظام القرآن[١].

٧ ـ وإمعان في أقسام القرآن[٢].

ومما لم يُطبع من كتبه:[٣]

٨ ـ بقية تفسير سور من القرآن (ولم يكمله، وذلك ما خسِرت به الأمة المحمدية).

* ٩ ـ جمهرة البلاغة: (أصّل فيها الأصول ليهدي الناس إلى فهم إعجاز القرآن، وردّ فيها على أصول (بو طيقا)[٤] لأرسطو الذي أضلّ المتأخرين من مصنّفي كتب البلاغة، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله).

١٠ ـ فلسفة البلاغة.

١١ ـ سليقة العروض.

١٢ ـ دلائل إلى النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة.

---

(١) نشر منه الأجزاء الآتية:
١ ـ فاتحة نظام القرآن. وهي مقدمة تفسيره.
٢ ـ تفسير البسملة وسورة الفاتحة.
٣ ـ تفسير كل من السور الآتية في جزء مستقل: الذاريات، والتحريم، والقيامة، والمرسلات، وعبس، والشمس، والتين، والعصر، والفيل، والكوثر، والكافرون، واللهب، والإخلاص.

(٢) صدرت طبعة محققة له من دار القلم والدار الشامية عام ١٤١٥ هـ.

(٣) الكتب التي طبعت فيما بعد أشرنا إليها بنجمة قبلها.

(٤) وهو كتاب الشعر. وفي المطبوعة: (ريطوريقا) يعني كتاب الخطابة. والصواب ما أثبتنا.

* ١٣ ـ ملكوت الله، (وهو تحقيق نواميس الله وسننه في خلقه وتدبيره ومُجازاته).

١٤ ـ الرائع في أصول الشرائع.

* ١٥ ـ أساليب القرآن.

١٦ ـ إحكام الأصول بأحكام الرسول (وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوي).

* ١٧ ـ القائد إلى عيون العقائد (وهو ما جاء به القرآن من الدين لا يشوبه بدعة المبتدعين وفتنة المتكلمين).

١٨ ـ كتاب العقل وما فوق العقل (تحقيق العلوم التي تدركها العقول والتي فوق إدراكها).

١٩ ـ الإكليل في شرح الإنجيل (تصحيح ما نطق به الرسول المسيح، وتفسير ما أوّله المبطلون من أهل الصليب).

٢٠ ـ أسباب النزول (نزول القرآن).

٢١ ـ تاريخ القرآن (تاريخ جمعه وتأليفه، وهو كان يعتقد بالأدلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان مؤلفاً على عهد النبي ﷺ).

٢٢ ـ أوصاف القرآن (شرح ما وصف به القرآن نفسه من الحكمة والنور والإبانة وغيرها من النعوت).

٢٣ ـ فقه القرآن.

٢٤ ـ حجج القرآن.

٢٥ ـ كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.

* ٢٦ ـ رسالة في إصلاح الناس.

* ٢٧ـ كتاب أصول التأويل .

* ٢٨ـ مفردات القرآن .

* ٢٩ ـ دلائل النظام (هو إيضاح ما أراد به من نظام القرآن واستدلّ بالآثار على صحة ما أراد، وأقام عليه الحجج) .

٣٠ـ الأزمان والأديان .

٣١ ـ كتاب الحكمة (شرح معنى الحكمة التي في القرآن، والتي أوتي النبيون، وما كانوا يعلمون الناس منها) .

٣٢ ـ القسطاس (رسالة في علم جديد وهو منطق العمل وميزان الإرادات وأساس الحكمة العملية) .

* ٣٣ـ ديوانه العربي .

* [٣٤ـ تحفة الإعراب (منظومة في النحو بالأردية بأسلوب سهل) .

* ٣٥ـ ترجمة جزء من طبقات ابن سعد بالفارسية .

* ٣٦ ـ ترجمة رسالة (بدء الإسلام) بالفارسية، والأصل من تأليف العلامة شبلي النعماني بالعربية .

٣٧ـ الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق .

٣٨ـ الدمدمة والشمقمة .

٣٩ـ المنطق الجديد .

٤٠ ـ النظر الفكري حسب الطريق الفطري .

٤١ ـ الدر النضيد في النحو الجديد .

٤٢ ـ الطارق والبارق .

٤٣ ـ قيد الأوابد .

٤٤ ـ لوامع الأفكار] .

من يقرأ أسماء هذه الكتب، يقضي منها العجب ويؤمن بما أوتي صاحبُها من سعة العلم، وصحة النظر، وكثرة الفضل، وسلامة الذوق، وتوقد الذهن، والتأمل في القرآن، وفهم أصوله ومعانيه، وتناول أقاصيه وأدانيه.

رحمه الله وأكرمه، ونفعنا بعلومه وكتبه، ويسَّر لنا طبعها ونشرها وعمَّم المستفيدين خيرَها وبِرّها.

دار المصنفين

بمدينة أعظم كره بالهند | العبد الكئيب المحزون

سُليْمان النّدوي

٢٧ شعبان سنة ١٣٤٩هـ

(١)

خطبـة الكتـاب

الحمد لله خالقِ الوجود من العَدَم، وجاعل النّور من الظُّلَم، ومُخْرِجِ الصبر من الألم، وملقي التوبة على الندم، فنشكره على المصائب كما نشكره على النّعَم. ونصلّي على رسوله الأكرم، ذي الشّرف الأشمّ، والنّور الأتمّ، والكتاب المحكَم، وكمال النّبيّين والخاتَم، سيّد ولد آدم، الذي بشّر به عيسى ابن مريم، ودعا لبعثته إبراهيم عليه السّلام حين كان يرفع قواعد بيت الله المحرَّم، فصلّى الله عليه وسلّم، وعلى أتباعه خير الأمم، الذين بارك الله بهم كافة النّاس من العرَب والعجم.

أما بعد، فهذا كتاب من مقدّمة (نظام القرآن)[١] أفردتُه لتعيين مَن قرّبه إبراهيم عليه السلام مِن ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وسمّيته مؤرّخاً (الرّأي الصّحيح في من هو الذبيح). **والباعثُ على جَعلِ هذه المسألة موضوعاً لكتابٍ مفردٍ أمور:**

الأوّل ـ هو مكانتها العظمى في ملّتنا. وبيان ذلك أن الله تعالى إنّما اصطفى إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً للناس، بعد ما ابتلاه بالإسلام ووجده كاملاً فيه. والقرآن قد دلّ على ذلك تصريحاً وتلويحاً في مواضع:

فمنها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة ٢: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ

---

(١) يعني تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان).

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة ٢ : ١٣٠ ـ ١٣١] أي إنما كان اصطفاؤه لأنه أسلَمَ لربّه وأتمَّ ما أمرَه به.

ثم دَلّ على حقيقة هذا الإسلام وتمام هذا الامتحان بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٣]، وبقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٦]، أي هذا هو الامتحان الذي تبيَّن منه كمالُه في الإسلام، وهو تسليم النّفس للرّبّ تعالى، وذلك هو التوحيد الكامل والدّين الخالص.

ثم لم يجعل الله تعالى هذا الإسلام ملّةً وشريعةً عامّةً إلا لأمّة محمد ﷺ، فإن الشريعةَ لا تُحَمَّلُ إلاّ من يطيقها، ولذلك دعا إبراهيمُ عليه السلام ربَّه حين بناء الكعبة أن يبعث من ذرّيّته التي أسكنها بهذا البلد أمّةً تحمل هذه الشريعة التي هي حقيقة الإسلام وكماله، وكذلك دعا أن يبعث منهم رسولاً يُعلّمهم ويُرشّحهم لها، كما صرّح به حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة ٢ : ١٢٧ـ١٢٩].

وقد استجاب الله تعالى دعاءه، فأخرج هذه الأمّة، وأكمل بهم الملّة التي أسّسها إبراهيم عليه السلام على الإسلام الكامل، الذي هو إهانة النّفس وذبحها لربّها، فصاروا قَرابينَ على سنّة أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مَحياهم ومماتهم لربّهم.

وصرّح بذلك حيث قال تعالى لنبيّنا ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ٦ : ١٦١ ـ ١٦٣] أي المسلمين بهذا المعنى الخاصّ. فإن الإسلام

بالمعنى العامّ يطلق على جميع الملل الإلهيّة، ولكن الله تعالى لم يجعله عَلَماً واسماً إلا لهذه الملّة. وما ذلك إلاّ لأنّ حامليها على غاية الكمال في إسلامهم، وهو إسلام نفوسهم لربّهم، كما مرّ.

ولذلك اجتباهم وجعلهم شهداء الله على النّاس كما خاطبهم حيث قال عزّ اسمه:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج ٢٢ : ٧٨].

قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ إشارة إلى ما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ كما مرّ آنفاً.

ثمّ كان ذلك ليتمّ الله نعمَته على النّاس كافّة، ويجعل إبراهيم ونسله بركةً لجميع الأمم، كما صرّح به التّوراة حيث جاء في قصّة الذبح: «إنّي من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك وأكثر نسلك - إلى قوله - ويبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي»[١]. أي أبارك جميع أمم الأرض بما أنّهم يبلّغون الدّين الخالص والتوحيد الكامل.

وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي اجتباكم ربّكم لهذه الخدمة العظيمة. فهذه الأمة هي التي جُعِلَتْ قرابين لله محياهم ومماتهم له وبذلك جعلهم الله شهداءَ على النّاس وهُداةً إلى ربّهم.

ذلك، وقد تبيّن مما ذكرنا أنّ هذا الإسلام التّام هو حقيقة ملّة إبراهيم التي بعث الله نبيّنا لتكميلها وتفصيل شرائعها، وسمّاها (الإسلام)، وحامليها (المسلمين) الذين بعثهم من ذرّية إسماعيل التي أسكنها عند بيته المحرّم الذي جعله مركزاً للدّين الحنيفي الفطري القيّم، كما قال تعالى:

---

(١) سفر التكوين: ٢٢/١٦-١٨.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الرّوم ٣٠: ٣٠].

فمن زعم أن هذا الابتلاء وقع على جبل أورشليم، وقرّب عليه إسحاق عليه السلام كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمى وحقيقة هذا الذبح ومكانته في ملّتنا.

والثاني: أن في القرآن آياتٍ كثيرةً يتوقّف فهمُ تأويلها ونظامِها على معرفة هذه المسألة وما يتعلّق بهذا الذبح. وقد مرّ بعض الأمثلة لذلك، وسيأتيك بعضها في فصول هذا الكتاب، واستيفاء البيانِ في كتابنا (نظام القرآن) تحت كلِّ آية تشتمل على ذلك الأمر يُفضِي إلى تكرار وإطناب، فأفردتُ له كتابنا هذا، وجعلناه من مقدّمة تفسيرنا، لكي نحوّل إليه عند الحاجة.

والثالث: أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمرٍ مثلَ مبالغتهم في ذلك، فإنّهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل والكعبة، كما سيأتيك ذكر بعضها في الفصل الثاني بعد الثّلاثين وغيره.

وقد بيّن الله قصّة هذا الذبح في التوراة، ولكن اليهود قد دسوا فيها أهواءهم فأصلحها القرآن ومن ذلك أمران مهمّان:

الأول: أنّ صحفهم التي بأيديهم تقول: إنّ الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بصريح القول أن يذبح ولده. والقرآن يدلّ على أن الله تعالى لم يأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، وإنما رأى إبراهيم عليه السلام في الرؤيا أنه يذبح ولده. وذلك ممّا يدلّ على أنّ القرآن أرفع من أن يأخذ من اليهود وكتبهم المحرَّفة، بل هو المهيمنُ عليها والمصلح لما أفسدوا منها، ولله الحمد.

والثاني - أنهم في ذكر الذبيح أقحموا اسم إسحاق عليه السلام. وهذا من أشنع تحريفاتهم، فتكرّم القرآن عن ردّهم بصريح القول لوجوه من الحكمة، كما بيّناها في الفصل الثّلاثين. وكان في غنىً عن ذلك، فإنَّ في باقي الكلام شهاداتٍ بيّناتٍ على تحريفهم في هذا الموضع، إذ لم يقدروا على طمس آثار الحقّ كلّها، ويأبى الله ذلك، ولكن لمّا كان هذا التحريف موافقاً لأهوائهم أخذ بمجامع قلوبهم، وعضّوا عليه بالنواجذ، واتفقت فيه كلمتهم سلَفاً وخلَفاً.

وإذ لظواهر الكلام وشوائع الروايات صولة على غير النّاقدين الذين لا يستطيعون الفرق بين الصحيح والسّقيم، غرّ ذلك بعضَ أصحاب الروايات من علماء المسلمين ممّن كان يأخذ من اليهود ويحسن الظّنّ بصحفهم كالعلاّمة ابن جرير رحمه الله، فإنّه صرَّحَ في تاريخه أنّه يعوّل في أحوال الأمم على قول أهلها، وذلك لعدم اطّلاعهم على حقيقة هذه الصّحف وعدم فرقهم بين التّوراة الأصليّة وبين هذه التي ليست إلا روايات مخلوطة.

ومع أنّ النّاقدين من علماء المسلمين من أهل العلم والنّظر - كما ستعلم - قد استدلّوا بنصوص التوراة أنفسها على كون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، فإن اختلاف كلمتنا جعل هذا الأمر العظيم من الأمور التي لا يعدّ بها، بل عدم اعتدادهم به أمكنَ اختلافَهم فيه، فإنّهم لو علموا ما لهذا الذبح من المكانة في ملّتنا لتحذّروا عن الغفلة في أمره.

فلهذه الأمور الثّلاثة التي كلّها على غاية الأهمية احتجنا إلى كشف القناع عن وجه هذه المسألة، والله تعالى هو الموفّق للحقّ.

وجعلت الكتاب بعد المقدمة ثلاثة أقساط وخاتمة، فالقسط الأوّل في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب، ليكون ذلك حجّة عليهم. والقسط الثاني في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده.

والقسط الثالث فيما روي في هذه المسألة من الحديث والآثار، وأقوال مشاهير العلماء، والاستشهاد بأحوال العرب وأقوالهم قبل الإسلام.
والخاتمة في النّظر الجامع.

هذا، والآن نشرع في المقصود، ونسأل الله تعالى التأييد والتسديد، وهو الولّي الحميد.

القسط الأول

في الاستدلال بالتوراة

وبما اعترف به علماء أهل الكتاب

(٢)

بعض المعارف ممّا يتعلّق بشريعة القربان وبالوحي الذي يكون في الرّؤيا

قبل الشروع في البحث لا بدّ من تقديم بعض المعارف التي تتعلّق بالقربان وبالوحي الذي يكون في الرّؤيا، وهي عشرة كاملة:

(أ) يبعد جدّاً عن سنّة الشريعة الإلهية أن يأمر الله عبداً بذبح ولده، ولكنّ الرّؤيا بذلك غير بعيد، فإنّ الرّؤيا ربما تكون ذات تأويل. وأقرب تأويل الذبح للإنسان أن يقرّب به، فإنّ تقريب الإنسان لله أن يُجعل نذراً للرّبّ وخادماً لبيته، فإنّ خادم المعبد يُجعَل عوضاً عن القربان، ويُجرى عليه شعائرُه: من وضع اليد عليه، وترديده أمام المعبد، كما جاء في سفر العدد (٨: ١٠ ـ ١٦).

«(١٠) وتُقدِّم اللاويّين أمام الربّ فيضع بنو إسرائيل أيديهم على الّلاويّين. (١١) ويردّد هارون الّلاويّين ترديداً أمام الربّ من عند بني إسرائيل فيكونون ليخدموا خدمة الرّب. (١٢) ثم يضع الّلاويّون أيديهم على رأسَي الثّورين فتقرّبُ الواحدةَ ذبيحةَ خطيّةٍ والآخرَ مُحرَقةً للربّ للتكفير عن الّلاويّين. (١٣) فتوقف الّلاويين أمام هارون وبنيه وتُردِّدُهم ترديداً للربّ. (١٤) وتُفرِز الّلاويّين من بين بني إسرائيل فيكون الّلاويّون لي. (١٥) وبعد ذلك يأتي الّلاويّون ليخدموا خيمة الاجتماع فتطهرهم وتُردِّدُهم ترديداً. (١٦) لأنهم موهوبون لي هبةً من بين بني إسرائيل، بَدَلَ كلِّ فاتح رحمٍ بكرِ كلِّ بني إسرائيل قد اتّخَذْتُهم لي».

فهذا يوضح ما ذكرنا. ولذلك نظائر كثيرة في التوراة، وسيأتيك بعضها فاكتفينا ههنا بما يغني.

(ب) الكشف عن غيب ربما يكون بالرّؤيا. وهي أحياناً تأتي مثل فَلَق الصبح، وأحياناً تكون في حجاب. ومثالها مثال الكلام، فإنّه ربما يدلّ على مفهومه بصريح القول، وربما يدلّ عليه بوجه من وجوه المجاز من الاستعارة والتمثيل. فالقسم الأخير من الرّؤيا يحتاج إلى تأويل، والتأويل ربما يكون غامضاً، وحينئذ ربما يخفى على صاحب الرؤيا، كما خفي تأويل رؤيا صاحبي يوسف - عليه السلام - عليهما، ورؤيا الملك عليه، ولذلك نظائر في التوراة مثل رؤيا الملك بختنصّر، ورؤيا النبيّ دانيال عليه السلام، التي كشف له تأويلها من بعد، وهكذا يكون أمر الأنبياء.

وللتأويل علم خاص مبنيّ على نوع من البصيرة والحدس الصّائب يعطيه الله من يشاء، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف ١٢ : ١٠١].

(ج) الوحي إذا كان في الرؤيا فلا فرق بينه وبين ما يوحى في اليقظة في الإيقان به.

وذلك بأنّا لا نحسّ بوجود قوّة فينا إلاّ إذا ظهرت فعلاً أو انفعالاً، وحينئذ لا نحتاج إلى دليل آخر للإيقان بها، فإنّها أقرب الدّلائل، ألا ترى أنّ السمع والبصر والفهم أقرب الدلائل على وجود قواها؟ فمن يوحى إليه لا يحتاج إلى دليل خارج إلاّ لرفع الشكّ العامّ الذي لا يرفعه عن النّاقد المحقّق إلاّ تطابق الشهادات وتكرار التجربة.

فالوحي سواء كان في اليقظة أو في المنام مصحوب ببرد اليقين ووضوح الشعور به. وكما نفرّق بين المحسوس والخيال في اليقظة،

فكذلك نفرق بين الحلم الذي هو من باب الخيال وبين الرّؤيا التي هي باب من الوحي.

وقد بقي هذا الباب من النبوة مفتوحاً يُستدَلّ به على صحّة طور الوحي بطريق المشاهدة، وإن كان بينهما من الفرق ما لا يخفى، فشتّان ما بين الثّرى والثّريا.

(د) لا يقدّم قُرباناً ونذراً إلى الرّب تعالى إلاّ البكرُ من أولاد الإنسان والبهائم، والباكورة من محاصل الأرض. وهذا حكم قديم، وبه نزلت التوراة.

فإنك تجد ذلك من لدن آدم عليه السلام، ففي سفر التكوين (٤ : ٤): «وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سِمانها، فنظر الرّبّ إلى هابيل وقربانه».

وأما التوراة ففي سفر العدد (٨: ١٧ ـ ١٨): «لأن لي كلّ بكر في بني إسرائيل من النّاس ومن البهائم يوم ضربتُ كلّ بكر في أرض مصر قدّستُهم لي فاتخذت اللّاويين بدل كلّ بكر في بني إسرائيل».

وأيضاً في سفر الخروج (١٣ : ١ ـ ٢): «وكلم الرّبّ موسى قائلاً قدِّس لي كلَّ بكر كلّ فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس ومن البهائم، إنّه لي».

(هـ) فضيلة البكورية لا يبطلها شيء حتى إنّ البكر إن كان من زوجة مكروهة، والابن الثاني من زوجة محبوبة، فابن المكروهة هو صاحب الفضيلة. «فإنّه أوّل قدرته وله حقّ البكوريّة» (سفر التثنية ٢١ : ١٥ ـ ١٧).

(و) مَن جُعِلَ نذراً لله فلا نصيب له في الميراث فإنّ الرّب هو نصيبُه. سفر التثنية (١٠ : ٨ ـ ٩): «(٨) في ذلك الوقت أفرز الربّ سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الربّ ولكي يقفوا أمام الربّ ليخدموه ويباركوا باسمه

إلى هذا اليوم. (٩) لأجل ذلك لم يكن للاوي قسم ولا نصيب مع إخوته، الربّ هو نصيبه، كما كلّمه الربّ إلهك».

أيضاً فيه: (١٨ : ١ ـ ٣): «(١) لا يكون للكهنة اللّاويين كلّ سبط لاوي قسمٌ ولا نصيب مع إسرائيل (٢) يأكلون وَقائدَ الربِّ ونصيبَه. (٣) فلا يكون له نصيب في وسط إخوته. الربُّ هو نصيبه كما قال له».

وعلى هذا شواهد كثيرة.

(ز) من شريعة النذر أن يردَّ سبعاً أمام المذبح ومن كان نذراً لا يعلو رأسَه موسى حتى يحلقه عند المذبح، كما جاء في سفر العدد (٦ : ٥ و٩).

(ح) مَن جُعِل نذراً للربّ وخادماً للمعبد يُعَبَّر عنه بكونه أمام الربّ، فإنّ (أمام الربّ) يختصّ بالتعبير عن أمام المعبد وخدمة الربّ، كما جاء في سفر التكوين (١٧ : ١): «لما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الربّ لأبرام وقال له: أنا الله القدير سبِّح أمامي وكن كاملاً».

وأيضاً في سفر التثنية (١ : ٨): «لكي يقفوا أمام الربّ ويخدموه ويباركوا باسمه».

وأيضاً في سفر الخروج (٢٨ : ٣٥): «فتكون (الجلاجل) على هارون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الربّ».

أيضاً (٢٩ : ١١): «فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع».

أيضاً (٢٩ : ٤٢): «محرقة دائمة في أجيالكم عند باب خيمة الاجتماع أمام الرّبّ».

أيضاً (٢٩ : ٢٣): «من سلّة الفطير التي امام الرّبّ... (٢٦) ... وتردّده ترديداً أمام الربّ».

وهذه العبارة كثرت جداً في سفر اللّاويين، وقد صرّح علماؤهم بهذا المعنى لـ (أمام الربّ).

(ط) لا يجوز تقديم القربان إلّا في المكان الذي يختاره الربّ. (سفر التثنية ١٢ : ١٣ ـ ١٤) و(سفر التكوين: ٢٢ : ١ ـ ١٤) و(التثنية ١٦ : ٥ ـ ٧).

(ي) في شريعة اليهود كان للقرابين جانب خاصّ من المذبح (سفر اللّاويّين إصحاح ١ ـ ٨)، وأعلى القرابين يسمَّى قدس الأقداس، (سفر اللّاويين ٦ : ١٧ و٢٥) وأيضاً (٧ : ١ و٦). وكان قدس الأقداس يقرَّب بالخصوص متوجّهاً إلى الجنوب، وكان يلزم من يدخل به أن يدخل من الباب الشمالي كما جاء في سفر الخروج (٤٠ : ٢٢ ـ ٢٩):

«(٢٢) وجعل المائدة في خيمة الاجتماع في جانب المسكن نحو الشمال خارج الباب (٢٣) ورتّب عليها ترتيب الخبز أمام الربّ كما أمر الربّ موسى (٢٤) ووضع المنارة في خيمة الاجتماع مقابل المائدة في جانب المسكن نحو الجنوب (٢٥) وأصعد السرج أمام الربّ كما أمر الربّ موسى (٢٦) ووضع مذبح الذهب في خيمة الاجتماع قدام الحجاب (٢٧) وبخر عليه ببخور عطر كما أمر الربّ موسى (٢٨) ووضع سجف الباب للمسكن (٢٩) ووضع مذبح المحرقة عند باب مسكن خيمة الاجتماع وأصعد عليه المحرقة والتقدمة كما أمر الربّ موسى».

وقد بيّن ذلك أحد مشايخ النّصارى في كتاب سمّاه The Temple (أي الهيكل)، وذكر فيه مناسك اليهود، فقال في الحاشية: «لا نعرف سبب ذلك هل كان ذلك لأن الشمال بلد البرد والظلمة؟ أو هل كان لأن المعبد في زمان سفرهم في التيه كان وجهه إلى فلسطين».

وبالجملة فإن باب المسكن كان في الشمال، وقبلته وموضع المنارة فيه كان في الجنوب.

(٣)

أصول للنّظر في صحف اليهود

اعلم أنه قد كثر في صحفهم الزّيادة والنّقص والتبديل وتحويل الكلم عن مواضعه، فيصعب على الناظر استنباط الأمور منها، كما يصعب على القاضي الاستدلال على حقيقة الواقعة بشهادات لا يعتمد عليها، وربما يتحير فيه العلماء.

وقد اعترف أهل الكتاب بذلك، ولا يبالون بذكره في كتبهم، فإن تناقض تلك الصحف ليس به خفاء. وذلك أمر قديم، ولا حاجة الآن إلى بسط القول فيه، غير أني أذكر ههنا نبذة من نفس صحفهم، انظر إلى يرميا النّبي حيث ينوح على كذبهم، ففي سفر أرميا عليه السلام (٢٣ : ٩ - ٣٦):

«في الأنبياء انسحق قلبي في وسطي... صرت كإنسان سكران... من أجل كلامِ قُدسِه... لأن الأنبياء والكهنة تنجّسوا جميعاً... يفسقون ويسلكون بالكذب... يتكلّمون برؤيا قلبهم لا عن فَم الربّ... في آخر الأيّام تفهمون فهماً، لَم أرسِلْ الأنبياءَ بل هم جَرَوا، لم أتكلّم معهم بل هم تنبّأوا... لذلك هأنذا على الأنبياء يقول الربّ الذين يسرقون كلمتي بعضهم من بعض... قد حرفتم كلام الإله الحيّ ربّ الجنود».

أيضاً (٨ : ٨ ـ ٩): «كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرّب معنا حقاً إنّه إلى الكذب حَوّلها قلم الكَتَبَةِ الكاذب خَزِيَ الحكماءُ ارتاعوا وأُخِذُوا ـ أي هم في حيرة ـ ها قد رفضوا كلمة الربّ فأيّةُ حكمةٍ لهم».

وإلى هؤلاء أشار المسيح عليه السلام، كما جاء في يوحنا (١٠ : ٨) «جميع الذين أتو قبلي هم سراق ولصوص». وفي هذه العبارة زيغ من جهة الرواية أو الترجمة، ولا شك أنه عليه السلام أراد أن (هؤلاء الذين أتوا قبلي) أي الذين جاؤوا بعد الأنبياء الصّادقين، وكانوا قبيل المسيح عليه السلام.

ومن ينظر في صحفهم لا يشك في أنّها مجموعة روايات مختلفة المآخذ، فكثيراً ما يناقض بعضها بعضاً كعادة الروايات، حتى إنّ صحف بعض فرقهم غير مسلمة عند الأخرى. وهذا أمر معلوم ومسلّم عند العلماء منهم.

فإذا كان الأمر هكذا فلا بدّ أن ينظر في هذه الروايات بعين الناقد المميّز بين الحق والباطل، ولذلك أصول:

(أ) لا يعتمد على ما وافق هواهم. وتصريحهم به ليس بشيء، فإنّهم بدّلوا وحرّفوا كثيراً.

(ب) من بدّل وحرّف فربما يخلط الحق بالباطل، بأنّه يغيّر ههنا وههنا، فكلّ ما خفي عليه من ملامح الحقّ بقي على رغم أنفه. فيؤخذ بما يلمح منه باقتضاء النّص وبإشارته، ويتمسك بالأمور الأشبه بالفوت عن تبديلهم.

(ج) الأمر الحقّ يجمع حوله حقائق أخر، ويبقى الكذب مخذولاً، فيستَدلُّ عليه بتطبيق الآيات والروايات وأجزاء الواقعة الواحدة وما يتّصل بها.

(د) وأيضاً يُستَمدّ بالمعارف المكتشفة من أحوال الأمم.

فهذه أصول عقليّة ظاهرة. ولا بدّ من رعايتها عند النّظر في صحف اليهود، لأنهم بدّلوا وحرّفوا كثيراً، كما مرّ.

(٤)

قصّة الذبح حسبما جاءت في صحف اليهود

نذكر أولاً قصّة الذبح حسب روايات اليهود في صحفهم، ثمّ ننظر فيها حسب الأصول التي قدمناها في الفصل السابق.

يبتدئ الأصحاح الثاني والعشرون من سفرالتكوين بهذه القصّة، ولكنّها متصلة بالأصحاح السابق الذي يذكر مسكن إبراهيم الذي رحل منه مع ابنه ليقرّبه. وفيه أنه تغرّب في بئر سبع، وجاء إليه ملك هذه الدّيار، وعاهد إبراهيم عليه السلام، ثم رجع إلى مستقرّه في فلسطين. وفي آخر قصّة الذبح إشارة إلى مسكنه الذي ذهب منه إلى المكان الذي قرّب فيه، فاحفظ هذه الأمور، والآن فانظر في القصة. جاء في سفر التكوين (٢٢ : ١ ـ ١٨):

(١) وحدث بعد هذه الأمور أنّ الله امتحن إبراهيم عليه السلام فقال له: يا إبراهيم، فقال: ها أناذا. (٢) فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك مُحرَقةً على أحد الجبال الذي أقول لك. (٣) فبكّر إبراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشقّ حَطَباً لمحرقةٍ وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله. (٤) وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد».

بعد ذلك ذكر مجيئه وتقديمه القربان حتى ناداه الربّ:

«(١٢) فقال: لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً. لأنّي الآن علمت أنّك خائفٌ الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي. (١٣) فرفع إبراهيم

عينيه ونَظَرَ وإذا كبشٌ وراءه مُمسَكاً في الغابة بِقَرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده مُحرقةً عوضاً عن ابنه. (١٤) فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَهْ يراه حتى إنّه يقال اليومَ في جبل الربّ يُرَى. (١٥) ونادى ملاك الربّ إبراهيم ثانية من السماء. (١٦) وقال بذاتي أقسمت، يقول الربّ: إني من أجل أنّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. (١٧) أباركك مُباركةً وأكثّر نسلَك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرثُ نسلُك باب أعدائه. (١٨) ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنّك سمعت لقولي. ثمّ رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع وسكن إبراهيم في بئر سبع.».

وبعد هذه العبارة: «وحدث بعد هذه الأمور»، وليس فيه شيء من قصّة الذبح فتركناه.

ولهذه هجرة إبراهيم روايتان أخريان سنذكرهما في طيّ الكلام، فإنّما المقصود في هذا الفصل الاقتصار على نصّ هذه القصّة وعلى ما تتضمّن من الأمور التي يُستدلّ بها على حقيقة الواقعة، فنوجّهك إليها، وهي هذه:

١ ـ كان إبراهيم عليه السلام قد اتّخذ بريّة بئر سبع مسكناً قبل التضحية وبعدها.

٢ ـ أرض المريا على مسير ثلاثة أيام من بئر سبع.

٣ ـ أرض المريا هي التي قرّب فيها.

٤ ـ ذلك الموضع كان يُرى من بعيد.

٥ ـ إنما قرّب إبراهيم عليه السلام ابنه الوحيد.

٦ ـ وكان هذا الابن محبوباً له.

٧ ـ كان بقرب ذلك المذبح غابة .

٨ ـ بارك الله إبراهيم عليه السلام لأجل أنه قرّب ابنه الوحيد .

٩ ـ ووعد أن يبارك في نسله جميع أمم الأرض .

١٠ ـ يرث نسله بابَ أعدائه .

ولم يتفطّن المحرّف بوجه الاستدلال بهذه الأمور، فبقيت، ولله الحمد. وأما التصريح باسم إسحاق فلا يُعتَمد عليه، لأنه موافق بأهواء اليهود، فأدخلوه، وقد دلّت عليه دلائل كثيرة بعضها من بيان هذه القصّة، وبعضها من غيرها من نفس صحفهم، كما سنبيّن ذلك إن شاء الله تعالى .

والآن نشرع في ذكر الأدلّة وبالله التوفيق .

(٥)

الاستدلال الأوّل
بمسكن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

لمّا بكّر إبراهيم عليه السلام لأن يقرّب ابنه لم يكن معه إسحاق عليه السلام، وإنّما كان إسماعيل عليه السلام هو ساكناً معه . والذي أدخل اسم إسحاق لم يتفطّن بهذا الأمر، فبقي دليلاً على إدخاله .

وتفصيل ذلك أنّ القصّة تصرّح بأنّ إبراهيم عليه السلام رجع بعد ما قرّب ابنه إلى بئر سبع، وسكن فيها. والرجوع إلى بئر سبع يدلّ على أنها كانت مسكنه من قبل، وقد صرّح بذلك في الأصحاح السابق .

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن بئر سبع هي الموضع الذي سكن فيه إسماعيل عليه السلام مع أمّه، فإنّهم قد ذكروا ذلك في قصّة إبعاد

إسماعيل وأمّه عن إسحاق وأمه. ولا شكّ أنهم أدخلوا في هذه القصّة أكاذيب، وقد اعترف به علماؤهم لما فيها من الأمور التي تكذّبها التوراة، ولكن بقي فيها الحقّ، فنأخذهم بما اعترفوا به. جاء في سفر التكوين (٢١: ١٤):

«فبكّر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماءٍ وأعطاهما لهاجر واضعاً إيّاهما على كتفها والولد، فمضت وتاهت في بريّة بئر سبع».

ثم ذكر نفاد الماء ومجيءَ البشارة من الله تعالى، وظهور الماء، حتى قال:

«(٢٠) وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البريّة».

إنما قال (البريّة) و(بريّة بئر سبع) فإنّ بئر سبع لم تكن قرية، وإنما كانت بريّة حفر إبراهيم عليه السلام فيها سبع آبار[1]، وغرس فيها أشجاراً، فقيل لها أوّلاً (برية بئر سبع) لكونها بريّة، كما يقال: (مدينة مصر)، (وجنات الفردوس) حسب الأسلوب العام. فلا يخدعنّك أحد بأنّ (بريّة بئر سبع) غير (بئر سبع) التي سكن فيها إبراهيم عليه السلام!.

ولا حاجة الآن إلى التعرّض لما في هذه القصّة من الكذب والجهل، فإنّما المقصود ههنا:

(١) أنّ بئر سبع كانت مسكن إسماعيل عليه السلام وأمّه.

(٢) وأنها كانت بعيدة عن مسكن إسحاق عليه السلام وأمّه.

(٣) وأنها كانت مسكن إبراهيم عليه السلام الذي ذهب منه للتضحية، ورجع إليها بعدها.

---

(١) في التكوين: ٢١/ ٢٨ ـ ٣١ أن المراد بالسبع هنا: سبع نعاج من الغنم.

ومما يدل أيضاً على كون مسكن سارة بعيداً عن مسكن إبراهيم عليه السلام أنّها لمّا مرضت لم يكن إبراهيم عليه السلام معها، حتى إذا سمع بموتها ذهب إليها. فقد جاء في سفر التكوين (٢٣ : ٢): «وماتت سارة في قرية أربع التي هي في حبرون في أرض كنعان فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها».

فتبيّن ممّا ذكرنا أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا بكّر صباحاً لتقديم ابنه قرباناً إنما أخذ معه إسماعيل عليه السلام الذي كان ساكناً في بئر سبع، لا من كان بعيداً عنه مع سارة في كنعان، على تسليم أنّه كان إذ ذاك قد وُلِدَ، فإنّ الصّحيح أن إسحاق عليه السلام إنّما وُلِدَ بعد واقعة الذبح، كما سيأتيك بيانه في الفصل الحادي عشر.

ثم يلمع من القصّة أنّ إبراهيم عليه السلام ترك ابنه المقرّب عند المذبح، وأيضاً يلمع ذلك من قول إبراهيم عليه السلام حين جاءته البشارة بإسحاق: «ليت إسماعيل يعيش أمامك» أي في خدمة بيتك، كما مرّ في حرف الحاء من الفصل الثّاني.

والقرآن يصدّق ذلك حيث يذكر من دعاء إبراهيم:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٧].

فهذا الابن الساكن عند بيت الله هو إسماعيل عليه السلام، فإنّ إسحاق عليه السلام لم يزل ساكناً مع أمّه في كنعان باتفاق الفريقين. وإنّ ذلك هو الأوفق، فإن إبراهيم عليه السلام اتّخذ مسكناً بين ذرّيّتيه، ليمكنه زيارتهما وليكون قريباً من بيت الله.

ولذلك حين مات عليه السلام كان ابناه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام معه، فقد جاء في سفر التكوين (٢٥ : ٩): «ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه».

هذا، وكذلك الاستدلال بموضع الذبح، وسيأتيك مفصّلاً في الفصل الثّامن إن شاء الله تعالى.

(٦)

الاستدلال الثاني
بأنّ إسماعيل عليه السلام كان هو وحيد أبيه

قد مرّ في القصّة أنّ إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه الوحيد، ولا شكّ أنّ إسماعيل عليه السلام ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة، فإنّه جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٦):

«وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لمّا ولدت هاجر إسماعيل لأبرام».

وفيه أيضاً (٢١ : ٥): «وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه».

فثبت من ذلك أمران:

(أ) لم يكن لإبراهيم عليه السلام وحيد إلا إسماعيل عليه السلام حتّى ولد له إسحاق عليه السلام.

(ب) قرّب هذا الابن الوحيد قبل ولادة إسحاق عليه السلام، فإنّه لم يبق وحيداً بعد ولادة أخيه، وفي كلا الأمرين دليل مستقلّ على أنّ المقرّب هو إسماعيل عليه السلام.

وإذا كان ذلك بيّناً تعسّف أهل الكتاب في الجواب، فقالوا: إن إسحاق لمّا كان هو مع أبيه، وكان إسماعيل قد أُبعِد عنه فصار إسحاق وحيداً كأن لم يكن لإبراهيم عليه السلام غيره.

وهذا الجواب سقيم جدّاً لوجوه :

(أ) قد مرّ آنفاً أن إسحاق عليه السلام هو الذي كان بعيداً عن أبيه وكان إسماعيل عليه السلام ساكناً مع أبيه وأمّه في بئر سبع .

(ب) إطلاق الوحيد على إسحاق لا يصحّ بمجرّد أنّ أخاه الأكبر كان بعيداً عنه وعن أبيه كما زعموا، فإنّ «ابنك وحيدك» إنّما يقال لمن لا ابن له غير ابن واحد، وهذا ظاهر جدّاً.

(ج) ولو سُلِّمَ ذلك على سبيل التنزّل، فإسماعيل عليه السلام أولى بأن يسمى وحيداً، لكونه مُبعَداً على زعمهم عن مسكن أبيه .

ثمّ هذه الكلمة التي صارت حجّة عليهم إنّما حرفوها من «بكرك» . وقد خسروا بهذا التحريف، فإنهم فروا من حجّة، فصارت عليهم حجّتان . وأظهرَتْ أمراً لم يحتسبوا أن يظهر، وهو أن إسماعيل عليه السلام قد قرّب قبل أن يولد إسحاق عليه السلام . ولله الحمد .

وسيأتيك ما يشيّد ذلك في الفصل الحادي عشر .

(٧)
الاستدلال الثّالث
بأنّ إسماعيل عليه السلام كان هو أحبّ إلى أبيه

قوله : «الذي تحب» إنّما يعرف به إسماعيل عليه السلام، لأنّ في صحفهم ما يبيّن أنّ إبراهيم عليه السلام كان أشدّ حباً لإسماعيل عليه السلام، وذلك من وجوه :

(أ) أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد دعا للولد، كما جاء في سفر التكوين (١٥ : ٢ ـ ٤):

«(٢) فقال أبرام: أيها السيّد الربّ ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً

ومالك بيتي هو العاذر الدمشقي. (٣) وقال أبرام أيضاً: إنّك لم تعطني نسلاً وهو ذا ابن بيتي وارث لي. (٤) فإذا كلام الربّ قائلاً: لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك».

فلما رزقه الله هذا الولد سماه (إسماعيل) أي سمع الله دعاءه، فإنّه جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٥):

«فولدت هاجر لأبرام ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل».

والآن فتصور شيخاً كبيراً أوّاهاً صبوراً قد ضاق صدره من عُقمِه، فدعا ربّه، فأجابه الربُّ تعالى، حتى إذا رُزِقَ الولدَ جعل تلك الإجابة اسمه، يدعوه به، ولا يفارقه، حتى إنه يبلغ ثلاث عشرة سنة وحيداً لأبيه الكبير الذي لا رجاء له لابن آخر. فإذا تصوّرت ذلك فاقضِ ما أنت قاضٍ في شدّة محبّته لابنه هذا.

(ب) لمّا جاءت إبراهيم عليه السلام البشارة بإسحاق تكلّم بما يدلّ على أنّ إسماعيل عليه السلام قد ملأ قلبه حبّاً، ولم تكن له حاجة إلى غيره، فقد جاء في سفر التكوين(١٧ : ١٨):

«وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك».

فذكرُه عند بشارة ابن آخر، والتمنّي لبقاءه متوسلاً بكونه أمام الربّ لا يكشف إلاّ عن غاية محبّته له. وإنّه لم يقدر على إخفائها حتى أظهر للربّ شدة إشفاقه عليه. ولذلك عرفه الربّ بكونه أحبّ إليه.

(ج) إنّ سارة عليها السلام لمّا سألت إبراهيم عليه السلام أن لا يرث إسماعيل عليه السلام مع إسحاق عليه السلام، وأن يخرجه وأمه، أسخط ذلك إبراهيم عليه السلام كما جاء في سفر التكوين (٢١ : ١١):

«فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم بسبب ابنه».

وهذا صريح في أن إسماعيل كان أحبَّ إلى أبيه.

(٨)
الاستدلال الرابع
بأنّ موضع الذبح هو المروة التي عند الكعبة

قد مرّ في قصّة الذبح: «في اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد». زعمت اليهود أنّ هذا الموضع هو موضع هيكل سليمان في أورشليم، وزعمت النّصارى أنّه موضع صلب المسيح عليه السلام حسب معتقدهم، ولكن المحقّقين منهم قد علموا أنّه باطل محض.

ونذكر خلاصة آرائهم من كلام أحد مشايخهم أعني كولنزو (G. W. Colenso) فإنه ذكر مخالفتهم في اسم الموضع الذي سموه «أرض المريا»، ثمّ صرّح بتحريفهم في هذه التسمية. وهذا ما ذكره من الاختلاف:[١]

مواقع ذكر هذا الاسم	حسب النسخة السبعينية	حسب النسخة العبرانية
سفر التكوين (٢٢ : ٢)	إلى الأرض العالية	إلى أرض موره
سفر التكوين (١٢ : ٦)	البلوطة العالية	ميدان موره
سفر التثنية (١١ : ٣٠)	قرب البلوطة العالية	على قرب ميدان موره
سفر القضاة (٧ : ١)	عند جبل موره	عند جبل موره
	حسب ترجمة أقيلا الذي ناقض السبعينية	**حسب ترجمة سماخوس**
سفر التكوين(٢٢ : ٢)	الأرض المستعلنة	أرض الرؤيا

---

(٢) انظر كتابه: The pentateuch and Book of Joshua : ٢ : ٢٤٧_٢٤٨.

قال الفراهي: وأيضاً يكتبون هذه الكلمة بصور مختلفة، كما سيأتيك ذكره في هذا الفصل.

وبعد ذكر هذه الاختلافات استدلّ كولنزو على تحريفهم وتمسك بحجّتين:

الأولى: أنّ هذا الاسم لمكان الهيكل لا يوجد في سائر الصحف، فقال: «لا يوجد هذا الاسم في أحد من الكتب بعد سليمان، فإنّ كتب الأنبياء والمزامير الأولى لا تذكر الجبل الذي بني عليه الهيكل إلاّ باسم «صيهون»، ولا تذكر (مريا) أبداً لمكان الهيكل».

والثانية أن صفة ذلك الموضع لا تصدق على مكان الهيكل، وهذه الحجّة في غاية القوّة. فقال: «وليس هناك صعيد يطابق بقوله: «مكان بعيد» الذي رفع إليه إبراهيم عينيه، فإنّ المكان الذي تزعمه اليهود موضع القربان أعني جبل الهيكل جبل مورياه ـ ولا دليل عليه غير هذه التسمية ـ فإنّه لا يرى إلاّ بعد ما بلغه المسافر من الجانب الشرقي من وادي هنوم الذي يطلع عليه فينظر إلى الهيكل من فوق».

ثمّ قال في تأييد ذلك: «ويذكر إسطانلي المحقّق رأيه المنقّح هكذا: «من خيامه في بئر سبع ارتحل في الصبح وذهب إلى المكان الذي أمره الله، لم يكن ذلك ما اختاره اليهود على جبل موريا في يروشلم. وأبعد من ذلك ما يزعمه المسيحيون بقرب كنيسة القبر المقدّس. وأبعد من ذلك ما يزعمه المسلمون على جبل عرفات بمكّة. الأشبه أن يلتمس ذلك على جبل جريزيم وهو أنسب بالمذبح شكلاً»[1].

---

(١) المرجع السابق ٢: ٢٥٤.

فأقول: ما نسب إلى المسلمين من القول بأنّها على جبل عرفات فلا يصحّ، فإنّي لا أعلم أحداً من المسلين يقول بأنّ المنحر هو جبل عرفات. وأما جبل جريزيم فذلك قول فرقة من اليهود المسمّاة بالسامريّة، ولهم توراة مختلفة ممّا هي لعامّة اليهود، وهم أحبُّ إلى المسيحيين من هذه اليهود.

والمقصود من نقل هذه الأقوال أنّ موضع الذبح المسمّى باسم موره صار موضعاً لاختلاف شديد فيما بينهم، فطائفة منهم غيبوا هذا الاسم، وترجموه إما ببلوطات عالية، وإمّا بأرض مستعلنة، وإما بأرض الرؤيا. وطائفة منهم أبقَو هذا الاسم، ولكن حرّفوه لفظاً، فجعلوه (موره) و(مرياه) و(مورياه). وذلك ليلبسوا الحقّ بالباطل، كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران ٣: ٧١]. **والآن نكشف عن حقيقة الأمر ليتّضح ما هو هذا الاسم وما هو مسمّاه:**

أمّا الأول: فاعلم أن الاسم هو (المروة) بالميم الأصليّة وتقديم الراء على الواو، والمروة معناها: الحجر الأملس اللاّمع، وقد جاء في كلام العرب كثيراً[1].

---

(١) ومنه قول امرئ القيس (ديوانه: ٦٤):
كأن صليل المروِ حين تُطيره ... صليلُ زيوفٍ يُنتقدنَ بعبقرا
وقال أيضاً (ديوانه: ١٧٩):
كأنّي ورحلي والقرابَ ونمرقي ... إذا شُبَّ للمرو الصغار وَبيصُ
على نِقنِقٍ هَيقٍ له ولِعرسه ... بمنعرج الوعساء بيضٌ رصيصُ
وقال طرفة بن العبد (مختارات ابن الشجري: ١٩٥):
فترى المروَ إذا ما هجّرتْ ... في يديها كالفراش المشفترِ
وقال أعشى قيس (ديوانه: ٢٩١):
وتولّي الأرض خفّاً مُجمراً ... فإذا ما صادفَ المروَ رَضَخْ =

ويستدلّ على ذلك بأنّ الذين ترجموه جعلوا ترجمته (المستعلنة) أو (الرؤيا) أو (العالية)، وذلك لا يطابق بما بدّله المحرّفون وجعلوها موره وغيرها، فإنّهم يقولون في اشتقاق موره: إنّ أصل هذا الاسم إمّا (يرا) أو (يره)، فأمّا (يرا) فهو الخوف والتعجّب، وإن موره معناه: الخوف أو سبب الخوف، وأمّا (يره) فهو الرمي والسقي، وإن موره على هذا يكون معناه: الرامي، وأوّل المطر، والأستاذ.

فنقول: إن الكلمة لو كانت في الأصل (موره) ـ كما زعمها المبدّلون ـ لم يترجمها الأوّلون بالمستعلنة والرؤيا والعالية. ولا شكّ أنّهم وجدوا كلمة (مروه)، وإذ لا توجد مادّتها في لغتهم توهّم المترجمون أنّها (مرأه) لكثرة تبدّل الواو بالألف في العبرانية، فاشتقّوها من مادة رأه، وهي في لغتهم بمعنى الرؤية والنظر، وعلى هذا يكون (مرأه) حسب اشتقاقهم هو النظر والمستعلن والرؤيا.

ومن ههنا يتّضح أنّهم إمّا وجدوا (مروه) أو (مرأه) ثم الصّور التي أبقاها من لم يترجم الكلمة تدلّ على أنّ الواو من أصل الكلمة، وأمّا الميم فهم متفقون على إثباتها في أوّلها، ويتضح من المقابلة بين أصل الكلمة وبين ما بدّلوها إليه من الصّور المختلفة أنّها هي (مروه) لا غير.

وإنّما كثر الاختلاف لأنّ علامات الحركات لم تكن في الأصل

= وقال أبو ذؤيب الهذلي (شرح أشعار الهذليين: ١٢١):

المانح الأُدمَ كالمرو الصّلاب إذا ... ما حارد الخُورُ واحتُثَّ المجاليحُ

وقال أبو خراش الهذلي (المرجع السابق: ١٢٣٦):

كـأنّ المـرو بينهمـا إذا مـا ... أصـاب الـوعـثَ منتقفـاً هبيـدُ

وقال ذو الرّمة (ديوانه: ١٤٢٣):

وتهجيـرنـا والمـروُ حـامٍ كـأنمـا ... يطـأن بـه والشمـسُ بـاديـةٌ جمـرا

وذلك غيض من فيض.

العبراني، وإنّما أحدثها المتأخّرون، ولم يكن فيهم الحفّاظ فيحافظوا على القراءة الصّحيحة، ثم بعد ذلك ربما وقع أنّ ما كان حركة في القديم بدّلوها بالحرف وبالعكس، فمن هذه الوجوه كثر التحريف والتبديل في صحفهم. فنكتب صور هذه الكلمة معرّاة عن الحركات مع بيان قراءتهم إياها، وترى غلوهم في التبديل ممّا يزيدون بقراءاتهم من المدّ والشدّ لكي يمهّدوا للمتأخرين سبيلاً لتبديل بعد تبديل:

صورة أصل الكلمة	الصورة المبدّلة	قراءتهم
مروه	(١) מריה (مريه)	مُريّاهُ
	(٢) מוריה (موريه)	موريّاه
	(٣) מורה (موره)	مُورهِ

والآن ننبّه على مداخل التوهّم:

أمّا في الصورة الأولى: فالواو عندهم كثيراً ما تتبدّل بالياء مثلاً גּוֹל (جول) و גִּיל (جيل) للجولان أيضاً הֹוָה(هوه) و יוֹתֵר (هيه) للآفة، ويكتبونها بهاء هوّز، فإنّهم ضيعوا حاء حطّي، وجعلوها الخاء المعجمة.

وفي المواد المشتركة بين العربية والعبرانية كثيراً ما ترى ما هو واو في العربية صار ياء في العبرانية مثلاً دلو ودلى، وهذا كثير في أوائل الكلمات مثلاً ولد / يلد، ورد/ يرد، وقر/ يقر، وعظ/ يعظ، وذلك إما للتسهيل أو للتشابه بين الحرفين الواو والياء في الكتابة العبرانية كما رأيت آنفاً.

وأما في الثانية، فالضمّة التي توهّموها على الميم جعلوها حرفاً مستقلاًّ. وهذا كثير في ألفاظهم مثلاً יְאֹר (يؤُر) יְאוֹר (يؤور) للنّيل والنّهر عموماً، وأيضاً יֹתֵר (يُتر) و הַיָּה (يوتر) للزيادة. وعلى هذا فصار مريه موريه.

وأمّا في الثّالثة: فقدموا الواو على الراء. وذلك إمّا لعموم قلبهم الكلمات العربية مثلاً جور من جرو، ويحف من حفى، ويعل من علو، وكله من كهل. فعلى هذا (موره) إنما هي مقلوبة من (مروه). وإما للتشابه الذي بين الحرفين ו و ר أعني الواو والراء. فعلى هذا (موره) تصحيف من (مروه) التبس فيها الراء بالواو. وذلك غيرُ بعيدٍ وسهلٌ على من يحرف خطأً أو عمداً. وترى لهذا الالتباس بعض أمثلة في لغتهم مثلاً لفظ (برص) جعلوه (بوص). وليس ذلك إلاّ لمشابهة الواو بالراء في كتابتهم.

وأما الأمر الثاني ـ وهو تعيين المسى بهذا الاسم ـ فقد مرّ في أوّل هذا الفصل أنّ عامّة اليهود جعلوه لمكان هيكل سليمان عليه السلام، والنّصارى لكنيسة القبر المقدّس عندهم، ولكنّ علماءهم بينوا وَهَنَ هذه الحِيل، فكفونا مؤنةَ إبطالها.

وأمّا قول إسطانلي إنّه على جبل جريزيم، فقياس محض، وبناؤه على أنّ هذا الجبل مثل سرير مرفوع مناسب لأن يتّخذ مذبحاً، ومع ضعف هذا القياس لا يقول به يهودي ولا نصرانيّ ، فلا يلتفت إليه. فبقي علينا تعيينه، فنقول: إنّ ذلك الموضع هو الذي في مساكن بني إسماعيل، ولم يزل مشهوراً باسم المروة.

ويؤيد ذلك ما في صحفهم، فإنّه قد جاء في سفر القضاة (٧: ١): «وكان جيش المديانيين شماليّهم عند تل موره في الوادي»، فتبيّن أنّ هذا تلّ موره كان معسكر المديانيّين، ولا شكّ أن المديانيّين هم العرب، واسم مديان يُطلق عليهم وعلى أرضهم. وقد جاء التصريح في صحفهم بأنّ مديان هم الإسماعيليّون.

وقال (سيل) مترجم القرآن في الإنكليزية: «مديان من مدن الحجاز..

وكانـت على بحر قلزم في الجنـوب والمشـرق من سـيناء، ولا شـكّ أنها موديانة التي ذكرها بطليموس»[1].

وفي سـفر القضاة (٨: ٢٢ ـ ٢٤): «(٢٢) وقال رجال إسـرائيل لجدعـون تَسـلّطْ علينا أنت وابن ابنك لأنّـك قد خلّصتنـا من يدِ مديان. (٢٣) فقال لهم جدعون: لا أتسـلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم، الربّ يتسلط عليكم. (٢٤) ثم قال لهم جدعون: أطلبُ منكم طِلبةَ أن تعطـوني كلَّ واحد أقراط غنيمتِـه، لأنـه كان لهم أقراط ذهب لأنّهم إسماعيليّون».

وفي سـفر التكوين (٣٧: ٢٥ ـ ٢٨): «(٢٥) ثمّ جلسـوا ليأكلوا طعامـاً فرفعوا عيـونهم ونظَروا وإذا قافلـة إسـماعيليين مقبلة من جلعادَ وجمالُهم حاملة كثيراء وبَلَساناً ولاذَناً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. (٢٦) فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتَل أخانا ونخفي دمَه؟ (٢٧) تعالوا فنبيعه ـ أي يوسف عليه السلام ـ للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له أخوته. (٢٨) واجتاز رجال مديانيّون تجّار فسحبوا يوسفَ وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليّين بعشرين من الفضّة».

فاتّضح مما ذكرنا أنّ موره كان في مساكن مِديان، وأنّ مديان هم بنو إسماعيل، وأنّ أرض مديان في الحجاز على بحر قلزم.

وقد مرّ آنفاً أن (موره) هي تحريف (مروة)، وقد اعترف المحقّقون منهم بأنّ هذا الموضع لم يكن في الشّام في مساكن اليهود، وإنّما أدخلوا هذا الاسم في صحفهم، واخترعوا له موضعاً لم يثبُت عند المحقّقين

---

(١) انظر ترجمته لمعاني القرآن، ص١٢٥.

وجودُه، بل نصـوص صحفهم قد دلّـت على أنـه في أرض الحجـاز في مساكن بني إسماعيل.

فبعد ذلك أيّ شيء بقي من دعواهم بأنه على جبل أورشليم؟ أم أيّ شيء يدفع ما لم يزل الإسماعيليّون يعرفونه بالمروة؟ وكانت عندهم أشهر من نار على علَم، وكانوا يطوفون بها في حجّهم. وحين خاطبهم القرآن في أمر الطّواف لم يحتَج إلى تعريفها، ولكن بيّن أنّها من شعائر الله، وهناك أشار إلى تحريفِ أهل الكتاب في أمرها، وسوءِ صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله، من بعد ما بيّنها الله تعالى في كتابهم. وسيأتيك ذكره في القسط الثاني.

وقد جاء في صحيح الحديث أنّ النبيّ ﷺ أشار إلى المروة حين رأى البُدْنَ واقفةً عندها فقال: «هذا المنحر، وكلّ فجاج مكّة منحر وطرقها منحر». وقال مرّة لمنى: «هو منحر» (موطأ)[1]. وبذلك بيّن أن منى من طرق مكّة. وانظر كيف سمّى النّبيّ ﷺ كلَّ ذلك منحراً، وأمّا المروة فسماها (المنحر) أي هي المنحر الحقيقي.

ثم على ذلك دلالة من القرآن حيث قال تعالى في أمر البُدْن: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج ٢٢: ٣٣]، وأيضاً ﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة ٥: ٩٥]، أي لا بدّ للبُدْن أن تبلغ الكعبة، فإن محلّها جانب الكعبة التي هي البيت القديم الذي وُضِع لذلك أوّلاً، كما صرّح في موضع آخر. والمروة هي بجانب الكعبة، وهي المنحر الأوّل، ولكن لمّا توسّع نطـاق الأمة جعل للمنحر سعة، إذ لاخلاف بيننـا وبين أهل الكتاب أنّ المنحر

---

(١) انظر الموطأ، كتاب الحج، باب ما جاء في النحر في الحج، ولفظه: عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال بمنى: «هذا المنحر وكل منى منحر» وقال في العمرة: «هذا المنحر» يعني المروة «وكل فجاج مكة وطرقها منحر».

الإبراهيمي عند بيت الله كما جاء في سفر التكوين (١٢ : ٦ ـ ٩) فتلك هي المذبح الذي عند بيت الله الذي بناه إبراهيم.

ثمّ إنّ هذه المروة هي التي تصدق عليها الصّفات المذكورة في قصّة الذبح التي لا تصدق باعترافهم على جبل الهيكل الذي سمّوه (موريا) و(موره)، و(المريا) مِراءً وكتماناً للحقّ.

فتطابق الأمور يدلّ على أن إبراهيم عليه السلام جاء من جهة الشرق، وترك غلاميه على جبل قريب، وذهب بابنه الوحيد إسماعيل إلى المروة ساعياً وملبياً لدعوة الربّ. وكان مسكن إبراهيم عليه السلام إلى جانب الصّفا كما جاء في سفر التكوين (١٢ : ١ ـ ٨) حيث جاء ذكر رحلته إلى أرض موره في رواية أخرى لقصّة الذبح، ولكنهم أسقطوا منها ذكر هذا الذبح، واكتفوا بذكر رحلته.

فلم تزل الصّفا والمروة في بني إسماعيل قائمتين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع الاسم والرسم والمناسك الدالة على تلبية إبراهيم للربّ وسعيه لإتمام أمره، وليس لليهود ولا للنّصارى شيء من هذه المناسك. وسيأتيك تفصيل ذلك في الفصل الرابع عشر.

(٩)

الاستدلال الخامس

بأنّ إسماعيل عليه السلام كان هو الأولى بأن يقرّب

قد صرّحت التوراة بأنّ إسماعيل عليه السلام كان هو بكر أبيه والشريعةُ من لدن عهد آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام مؤكِّدَةٌ بأن البكر هو الذي يقرَّب، ولا يُبطِل فضيلة البكورية شيء. راجع الفصل الثاني (د) و(هـ).

فكيف يُظَنّ أن إبراهيم الذي كان أمَره الله بأن يكون كاملاً تَركَ شيئاً من أوامر الله، وغفَلَ عن السنّة المعروفة، وضنَّ ببكره على ربّه، وقرّب إسحاق الذي لم يدعُ له، بل حين جاءته البشارة بولادته أظهرَ أنّ إسماعيل هو يكفيه! .

فهل يـأتي كلُّ مقـرّبٍ بما أمر بـه الرّب، وإبـراهيمُ عليـه السـلام الموصوفُ بكمال العبودية يأتي إلى الربّ بما هو دون قرابين النّاس؟ هذا محال فاحش! .

(١٠)

الاستدلال السادس
بأنّ البشارة بإسحاق تمنع أن يكون هو قرباناً

قد بشر الله إبراهيم عليه السلام ببركة نسل إسحاق عليه السلام حين بشَّره بولادته. وأما إسماعيل عليه السلام فقد بشّر ببركته بعد البشارة بإسحاق أو عندها، كما جاء في سفر التكوين (١٧ : ١٩ ـ ٢٠) :

«(١٩) فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. (٢٠) وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جدّاً».

فهل يمكن، بعد ما بشّر الله إبراهيم بكثرة ذريّة إسحاق عليه السلام، أن يأمره بذبحه، وهو صغير لم يتزوج بعد؟ فإنّه إنّما تزوج بعد ما كبر إبراهيم عليه السلام جدّاً، راجع الأصحاح (٢٤) من سفر التكوين. ورزق الولد إمّا بعد موت إبراهيم كما جاء في سفر التكوين (٢٥ : ١١): «وكان بعد موت إبراهيم أنّ الله بارك إسحاق ابنه»، أو في آخر عمره، فإنّه جاء في سفر التكوين (٢٥ : ٧): «وهذه أيّام سني حياة إبراهيم التي عاشـها مئة

وخمس وسبعون سنة». وأيضاً (٢٥: ٢٦): «... وكان إسحاق ابن ستين سنة لمّا ولدتهما ـ أي عيصو ويعقوب ـ». وعلى هذا ولد يعقوب حين بقي من عمر إبراهيم عليه السلام خمس عشرة سنة.

ومثل هذه المناقضات كثيرة في صحفهم. وعلى كلّ حال لم يكن لإسحاق عليه السلام ولد إلا بعد كبره وشيخوخته، والقربان إنّما كان غلاماً بالاتفاق بين الفريقين حسب تصريح التوراة والقرآن، فليس لقائل أن يقول بأنّ إبراهيم قرّب إسحاق بعد ما صار له نسل.

وإن قيل: إنّه علِم أنّه يكثر نسله بعد ذبحه، فعلى هذا التقدير فنقول: أيّ ابتلاء فيه لإبراهيم عليه السلام بعد ما علم أنّ ولده الذي يقرّبه لا يموت بل يحيى ويكثر نسله؟ هيهات، لا يكون ذلك ابتلاءً بل استهزاء!.

فإن قيل: إن هاجر عليها السلام أيضاً بشرت ببركة نسل إسماعيل وهو صغير جدّاً، قلنا: فهل أمرها الله بذبح إسماعيل حتى ينشأ فيه إشكال كما نشأ في أمر إسحاق؟ إذ زعمتم أن الربّ تعالى بشّر إبراهيم نفسه بكثرة ذريته من إسحاق قبل ولادته، ثم بعد ما ولد له إسحاق أمره بذبحه، وهو غلام لم يبلغ الحُلم، ولم يتزوّج، ولم يولد له؟.

(١١)

الاستدلال السابع

بوقوع التضحية قبل ولادة إسحاق عليه السلام

قد مرّ في الاستدلال الثاني أنّ التضحية إنّما كانت قبل ولادة إسحاق عليه السلام بحجّةٍ لا قِبَلَ لهم بها، ولكن نذكر ههنا أمراً آخر عظيماً وهو: أنّ ولادة إسحاق عليه السلام كانت من بركات هذه التضحية، ودلالة ذلك أيضاً على كون إسماعيل هو الذبيح ظاهرة، فنقول وبالله التوفيق:

الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين الذي جاء فيه ذكر بركة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام يشتمل على أمور مهمّة. ولا نشكّ أنه يُلمِع إلى قصّة تضحية إبراهيم عليه السلام، وأهمُّ ما فيه أنّه يذكر عدّة حوادث بأزمنتها، فننظر فيه، ونستنبط منه ما يتعلّق بموضوعنا.

ذكروا أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يسير بكمال الطّاعة، وهو يومئذ ابن تسع وتسعين سنة، وإسحاق عليه السلام لم يولد له بعد، وحينئذ أنزل الله شريعة الختان فختن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في يوم واحد. وإسماعيل يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة، وقطع الله بإبراهيم عليه السلام عهداً أبديّاً، وجعل الختان شعار ذلك العهد وشعار أمّته. وحينئذ بشّره ببركة نسل إسماعيل وولادة إسحاق وببركة نسله.

فهذا ماذكروه في صحفهم، فنقول: **إنّ الأمر بكمال الطّاعة، ووعد البركات العظيمة، وقطع العهد الأبدي لأكبرُ وأعظمُ من أن يناط بشريعة الختان، بل الأمر الحقّ الذي كتموه هو أن الله تعالى ابتلاه بذبح إسماعيل، فلمّا فعله باركه وبشّره بإسحاق، فكان إسحاق عليه السلام من بركات تضحية إسماعيل عليه السلام.**

ويبيّن ذلك ما قد صرّح به في قصّة التضحية من أنّ الله تعالى باركه لأجل أنّه لم يمسك ابنه الوحيد، فهذا هو الحقّ الواضح.

وكذلك من البيّن أن الابن الذي قرّبه إبراهيم عليه السلام لا يأتيه البشارة بكثرة نسله إلا بعد وقوع الابتلاء. ولذلك قال الربّ تعالى في إسماعيل: «ها أنا أباركه وأثمره كثيراً جدّاً» أي الآن أباركه.

فتبيّن من هذه كلّها أنّ بركة إسماعيل، وابتلاء إبراهيم وأمر الله لهُ بكمال الطّاعة، والعهد الأبديّ به، كل ذلك أمور منظومة بنظامٍ واحدٍ، ووقائع زمانٍ واحد، وهو وقت البشارة بولادة إسحاق عليه السلام، وإنّه

لم يولد بعد، فكيف يمكن أن يكون قرباناً؟.

بل الظاهر من بشارته أنّها كانت نتيجة لتضحية إبراهيم عليه السلام ابنه الوحيد، وقد جعله نذراً لله. ولذلك قال: «ليت إسماعيل يعيش أمامك»، كما مرّ في حرف الحاء من الفصل الثّاني. وسيأتيك أيضاً في الفصل الثالث عشر.

وإسماعيل عليه السلام كان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة في أحسن عمره طاهراً مطهّراً، وكان ذلك إبّان طلوع أزهار الرشد والأدب وزيادة الصحبة والأنس بأبيه، يعاضده في أعماله، ويشاركه في مساعيه، حتى يجده أحبّ إليه من نفسه، فذبحُ مثل هذا الابن الوحيد هو أحرى بأن يراد بالابتلاء العظيم، وبأن يثمر ببركات كثيرة، لا ما زعموا من شريعة الختان فإنّه سخيف جدّاً. **ومن يفرّ عن الحقّ ويكرهه يعثر أسوأ العثرات.**

(١٢)

الاستدلال الثامن

بكون إسماعيل عليه السلام نذراً لله، وهو بمعنى القربان

قد أعطى إبراهيم إسحاقَ كلَّ ما كان له، وأعطى أبناء السّراري عطايا، وصرفهم عن إسحاق الذي أورثه، وأرسلهم إلى أرض المشرق، فأبعدهم عن إسحاق. (التكوين ٢٥ : ١ ـ ٦). وأما إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فلم يبعدهما حتى دفناه. التكوين (٢٥ : ٩): «ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه».

فظهر أمران: الأوّل أنّ إسماعيل عليه السلام لم يبعد، كلّ البعد عن نفسه ولا عن إسحاق عليه السلام، فكانا يجتمعان معه ويأتيان لزيارته. ولم يكن ذلك لأبناء السراري.

والثاني أنه لم يجعل لإسماعيل عليه السلام نصيباً لا في الميراث مع إسحاق ولا في العطايا مع أبناء السّراري، وبعيدٌ مِن رجل كامل مثل إبراهيم عليه السلام أن يَحرِم هذا الولد الذي لم يفترق عنه حتى آخر عمره، وهو بكره، ولا يبطل حقّ البكوريّة شيء، كما مرّ.

فلا ينحل هذا الإشكال إلاّ بأنّه كان نذراً لله. فإنا علمنا أن المنذور لا يكون له نصيب في الميراث، فإنّما الربّ نصيبه، كما مرّ في حرف الواو من الفصل الثاني. وكذلك علمنا أنّ جعل الإنسان قرباناً هو جعله نذراً لله وخادماً لبيته، كما مرّ في حرف الألف من الفصل الثاني.

(١٣)

الاستدلال التاسع

بكون إسماعيل عليه السلام «أمام الربّ»، وهو بمعنى القربان

ممّا يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام جعل إسماعيل عليه السلام نذراً لله أنه جاء في سفر التكوين (١٧ : ١٨) حين أتى إبراهيمَ عليه السلام البشارةُ بولادة إسحاق: «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك».

وذلك بأنّ كلمة (أمامك) تدلّ على أنّه كان مُفرَزاً لخدمة الربّ خادماً لبيته، وإلا فأيّ محلّ ههنا لقوله «يعيش أمامك»؟

لا بدّ أنه جعل إسماعيل عليه السلام واقفاً أمام الربّ وموقوفاً على خدمة بيته، وذلك تعبير عن القربان، كما مرّ في حرف الحاء من الفصل الثاني.

(١٤)

الاستدلال العاشر

بأنّه لا أثر لهذا الأمر العظيم في شريعة اليهود، وهو الأساس في ملّتنا

لو كان إسحاق عليه السلام قرباناً لبقي في شريعة اليهود شيء من آثار هذا الأمر العظيم. ومع أن عبادتهم تقديم القرابين والنّذور، بل لا عبادة لهم

غيره، لم ينسبوا شيئاً منه إلى هذا الذبح الإبراهيميّ، بل ذكروا له مآخذ أُخر: مثل تذكار إهلاك الله أبكار قوم فرعون (عدد ٨: ١٥ ـ ٢٠)، وتذكار الفصح وهو عيدهم في أوّل سنتهم في شهر أبيب الذي أخرجهم الله فيه من أرض فرعون، والشكر لما أعطاهم من الأنعام ومحاصل الأرض، (تثنية ١٦ : ١٦ ـ ١٧).

وأما ذريّة إسماعيل عليه السلام فلم يزالوا متّبعين نسك إبراهيم حين ضحّى بابنه، كما يدل عليه مناسكهم التي استمرت إلى عهد الإسلام: **كالإهلال** بـ«لبيّك لبيّك» إشارة إلى ما جاء في قصّة القربان أنّ الله امتحن إبراهيم، فقال له: يا إبراهيم، فقال: «ها أناذا» سبع مرّات، فإنّ إبراهيم جاء من الصّفا وذهب إلى المروة سعياً لاهتمامه بالطّاعة. فإنّ السعي يستعمل لطواف العبد على سيّده: قال شاعرهم:

يسعى عليه العبد بالكوب[١]

وفي دعاء القنوت: «وإليك نسعى ونحفِد»[٢]. وفي القرآن: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ [الواقعة ٥٦ : ١٧ ـ ١٨][٣].

وكتسبيع الطّواف لأن النّذر يردّد أمام الربّ أي بيت الله، (لاوي ٨ : ٢٧) أيضاً (١٤ : ٢٢ ـ ٢٤)، **وكحلق الرأس** بعد ذلك، فإنّ ذلك سنّة النّذر.

وليس عند اليهود من هذه النّسك إلاّ الترديد وحلق الرأس للنّذير، ولكنّ أضحية النّذر عندهم تطوّع (سفر العدد ٦ : ٥ ـ ٩) أيضاً (٦ : ١٨).

---

(١) صدره:
متكئاً تخفِق أبوابُه
والبيت لعدي بن زيد العبادي، انظر ديوانه: ٦٧.

(٢) أخرجه البيهقي عن عمر رضي الله عنه موقوفاً، وصححه الذهبي، انظر المهذب في اختصار السنن الكبير: ٢/ ١٧٥.

(٣) انظر مفردات القرآن للمؤلف: ٤٤.

وأما القرآن فأكّد على فريضة الحجّ التي كانت من لدن إبراهيم عليه السلام، وبيّن أنّها وهذه المناسك من سنّته، وأنّ ملّتنا مبنية على إسلام إبراهيم وإسماعيل لربّهما، وأنّه قد دعا لبعثة نبيّ المسلمين من ذريّته في هذا البلد، وسمّى أمّته بالمسلمين، وأموراً أخر، وقد مرّ طرف من ذلك في الخطبة.

وبالجملة فإنّ اليهود ليس عندهم أثر من تضحية إبراهيم. وذلك لأنهم محوا كلّ ما كان عندهم من ذكر حجّهم إلى الكعبة، وتقدمة الهدايا إليها. وجعلوا كل شرف للبيت المقدس، واتفق بهم المسيحيّون، ولم يكن للبيت المقدس حظّ من تضحية إبراهيم، فما خسروا بذلك إلاّ أنفسهم.

فإنّهم ربما يقولون إنّ شريعة التضحية ليست بشيء. وإنّما أدخلوها بعد موسى، مع أنهم ملأوا صحفهم بها، وأخرجوا عنها كلّ عبادة غيرها حتى الصلاة، فإنّ طائفة من اليهود زعمت أن الصلاة تطوّع، ولم يأت بها موسى، فلم يتركوا لأنفسهم إلاّ التضحية، ولكن من شريعة التضحية أنّها لا يجوز إلاّ عند الهيكل (لاوي ١٧ : ٩) وطالما حُرِموا خدمة الهيكل، **فلم يبق لهم دينٌ لا الصّلاة ولا النّسك.**

ولذلك احتالت النّصارى فقالوا: نحن نتوجّه إلى الهيكل السّماوي. وذلك قولهم بأفواههم! فإنّهم يعلمون أنّ نظر الله ورحمته تأتي من هذا الهيكل، ومنه يسمع الله دعاءهم، كما صرّح به في صحفهم. (الملوك الأول ٨: ١٢ ـ ٥٣).

(١٥)
الاستدلال الحادي عشر
بما أمروا من توجيه قرابينهم إلى الكعبة

اعلم أنّهم أُمِـروا من أوّل أمرهم باتّخـاذ جانبِ مكّة قبلةً لأكبر قرابينهم. وبيانُ ذلك أنّه كان من الواجب في أمر القربان أن يؤتى إلى

المعبد أمام الربّ، وكان قدس الأقداس يوجَّه إلى الجنوب، كما مرّ في حرف اليـاء من الفصل الثـاني. وكذلـك الضّحيّـة السـنويّة التي هي أكبر الأضاحي عندهم تُوجَّه إلى الجنوب.

ولم يعرف أهل الكتـاب حكمـة ذلك، راجع الفصل الثـاني (ي). فنقول: الأغلب أنّهم لم يحبّوا البحث عنها، وكتموها تعمّداً. فإنّ خيمة عبادتهم كان من الأوّل وجهها إلى الشمال، سفر الخروج (٢٧ : ٩): « وتضع دار المسكن إلى جهة الجنوب نحو التَّيمن ».

أيضـاً فيـه (٤٠ : ٢٢ ـ ٢٤): «(٢٢) وجعـل المـائـدة فـي خيمـة الاجتماع في جانب المسكن نحو الشمال خارج الحجاب (٢٣) ورتّب عليها ترتيب الخبز أمام الربّ كما أمر الربّ موسى (٢٤) ووضع المنارة في خيمة الاجتماع مقابل المائدة في جانب المسكن نحو الجنوب».

وذلك ليكون من يأتي إلى الربّ متوجّهاً إلى الجنوب أي إلى مكّة المكرّمـة والمنحر الإبراهيمي. ويؤكّد ذلك أنّه في داخل الخيمـة كـان المسكن المقدّس الربّاني في الجنوب، وكان المذبح بين يديه إلى جهة الباب. ولذلك كان المقرِّب بقدس الأقداس يقوم على شمال المذبح ليكون متوجّهاً إلى المسكن، فيكون متوجّهاً إلى الكعبة. وعندها المروة التي هي المنحر الأوّل، وعنده مسكن إسماعيل عليه السلام.

(١٦)
الاستدلال الثاني عشر
بما جعل الله مسكن إسماعيل قبلتهم

وممّا يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى جعل بلدة إسماعيل قبلتهم، فأسكن إبراهيم أولاده في مشرق العرب وشماله، ولكن جعل لهم قبلة إلى مسكن إسماعيل، فإنّه أنزله أمام جميع إخوتهم. تكوين (٢٥ : ١٨): «وسكنوا

من حويلة إلى أشور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوتهم نزل». وتكوين (١٦ : ١٢): «وإنّه يكون إنساناً وحشيّاً يده على كلّ واحد، ويد كلّ واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن».

ولا يصحّ لذلك تأويل آخر، فإن أولاد إبراهيم غير بني إسماعيل سكنوا في المشرق والشمال فلا يكون أمام جميعهم إلاّ أن يكون في جهة قبلتهم، فجعل الله إبراهيم إماماً، وأورثه إسماعيل.

وأشار القرآن إلى ذلك حيث قال تعالى:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وأكبر هذه الكلمات ذبح ولده ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي مرجعاً يتوجّهون إليه ﴿ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة ٢: ١٢٤ ـ ١٢٥].

فلم يجعل مسكن إسماعيل قبلة لقرابينهم إلاّ لكون المنحر الإبراهيمي عنده.

(١٧)
الاستدلال الثالث عشر
بكون الكعبة هي بناء إبراهيم عليه السلام ومنحره

إذا نظرت في محلّ بيت الله بمكّة، واجتنابِ إبراهيم سننَ المشركين، وتحنّفِه، تأكّد لك أنّ هذا هو البيت الذي بناه والقبلة التي اتّخذها، وعندها المنحر الذي قرّب عليه ابنَه البكرَ إسماعيل الذي أسكنه عند البيت.

قال في ضميمة بائبل في ذكر ربوات الوثنيّين (صفحة ١٦٤ و١٦٥):

«هذه الربوات كانت مواضع عالية أو قُلَلاً بنيت لمقامات النّذور عليها للعبادة، بناءً على الاعتقاد الفاسد بأنّها كانت أقرب إلى السماء، ولذلك أصلح للصّلاة والبخور من سهل الأرض والأودية. ومع ورود

النّهي في كتب موسى التي تنهى عن الذهاب إلى الرّبوات كانت العبادة عليها عامّـةً في اليهود في زمان سليمان وبعده، ولم يبطلوا هذا العمل بأسره إلاّ في عهد يوشيه، فهدموا الرّبوات لأنّها كانت أشبه بمعابد بعل منها بعبادة يهوه، وكانت مخالفة لما أراد الله من بني إسرائيل».

فنقول: إنّ البيت المقدس الذي بناه سليمان كان على جبل عال، متبرّجاً بكلّ زخارف الوثنيين. والنظرُ في صفات معبد اليهود كما تجدها في سفر الخروج واللاويين من آلاتها الذهبية والفضية وأستارها الحريريّة وألبسة الكهنة والتزيّن بكلّ حجر ثمين حتى التماثيل للكروبيين لا يكشِف إلاّ عن سنن الوثنيين. وكذلك تحريقُهم الذبائح وإصعادُ أدخِنَتِها إلى أنف الربّ لا يليق بطريق إبراهيم عليه السلام الذي كان على السذاجة البدويّة.

وأمّا إذا نظرنا إلى بيت الله في مكّة وجدناه في بطحاء الأرض ضدّاً صريحاً لهياكل الوثنيين وعَبَدة الشّمس والكواكب، تنبيهاً على أنّ العبد أقرب إلى الله إذا خشع وسجد.

وإذا أيقنّا باجتناب إبراهيم دارَ المشركين، وفرارِه بدينه عنهم، وخلافِه لهم في جميع أموره، وجدنا إسماعيلَ ومسكَنَه ومعبدَه مصداقَ ما ذكره إبراهيم عليه السلام، كما جاء في القرآن:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٧].

إذ لا خلاف في أنّ منحر إبراهيم كان أمام بيت إيل، فأيّ بيت الله كان عند منحره؟ أهذا الذي بناه سليمان عليه السلام بعد إبراهيم عليه السلام بقرون كثيرة؟ أم هذا البيت العتيق الذي شهد القدماء بأنّه بيت معظّم في أرض العرب ومسكن إسماعيل وذرّيّته؟

ولنا دلائل أخر من صحف اليهود، من جهة البركات التي بارك الله بها إبراهيم عليه السلام وذرّيّته فإنّها لم تَصدُقْ في ذرّية إسحاق الذين غلب عليهم الأعداء، وأخرجوهم أسارى عن مساكنهم مرّة بعد مرّة، ولمّا يرثوا باب أعدائهم. ويفعل الله ما يشاء، وكلّ ذلك معلوم. فاقتصرنا في القسط الأوّل على هذه الأدلّة الثّلاث عشرة حسب سني عمر إسماعيل عليه السلام حين قُرِّبَ لربّه، وأُفرِزَ لخدمة بيته.

وفي هذا القدر كفاية وهداية إن شاء الله تعالى لمن تدبّر.

* * *

القِسط الثاني

في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده

(١٨)
بعض الأصول للتدبّر في قصص القرآن وحججه

اعلم أنّ القرآن إنّما نزل على غاية الإيجاز وتهذيب العبارة. فالنّاظر في قصصه وحججه ينبغي له أن يعرف منهج بيانه في الأمرين.

أمّا القصص فإنّما يأتي بها لتعليم العبرة والحكمة، وربما تتضمّن التصحيح لما غيّروه وبدّلوه. وكذلك لا يعتني باستيفائها في موضع واحد، بل يكتفي بذكر طرف منها في موضع، وطرف آخر في موضع. وربما يقتصر على إشارة وتلويح إمّا إلى جملة قصّة أو إلى جزء منها. وذلك فرع من أصل عامّ، وهو الاقتصار على القدر المناسب حسب اقتضاء المحلّ. وقد علم العلماء بأنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، فما كان مجملاً في موضع تجده مفصّلاً في موضع آخر، وهذا الأصل هو أكبر ما يعوّل عليه في تفسير القرآن.

هذا، **وأمّا الحجج** فوجه الإيجاز والبلاغة فيها أنّه كثيراً ما يأتي بها تعريضاً، أو يكتفي بما هو الأهمّ من المقدمات، فيترك ما هو الظّاهر بنفسه. هذا في العقليّات. وأمّا في النقليات فيذكر ما هو المشهور المسلّم، وربما يَضُمّ به التخويف، فإنّ المقصود منها العبرة والتذكير بأيّامِ الله وسنّتِه من النّعمة والنّقمة، **فهذان أصلان للنّظر في قصص القرآن وحججه.**

وبعد ما تبيّنت ذلك، فاعلم أنّ القرآن لم يذكر حديث الذبيح بالتصريح إلاّ في موضع واحد، ولكن تجد الإشارة إليه في مواضع شتى.

ولوجوه من الحكمة ـ كما ذكرناها في الفصل الثّلاثين ـ لم يصرّح باسم الذبيح. ولا شكّ أنّه إمّا هو إسماعيل أو إسحاق، فإنّ القرآن إنّما اعتنى بذكر هذين الابنين لإبراهيم عليه السلام.

ولولا في القرآن من الدّلائل الواضحة على تعيين الذبيح ـ كما ستعلم ـ لسكتنا عمّا لم يصرّح به، ولقلنا كما قال بعض علمائنا[1]: «والله أعلم أيّهما كان وكلّ قد كان طاهراً طيّباً مطيعاً لله عزّ وجلّ». فإنّه ليس لنا معشرَ المسلمين أن نتعصّب لنبيّ من الأنبياء عليهم السلام، ولكن الله تعالى أمرنا أن نتدبّر فيما أودع كتابه، لنعلم تأويل ما دلّ عليه بآياته.

وقد استدّل العلماء بكتاب الله على تعيين الذبيح، فالأولى أن نقدّم ما جاء به القرآن نصّاً وإشارةً. وأمّا الروايات وأقوال العلماء فندّخِرها للقسط الثالث، فأقول بعون الله وتوفيقه:

(١٩)
ذكر قصّة الذبيح
حسبما جاء بها القرآن والتمهيد للاستدلال

اعلم أن القرآن صرّح بقصّة ذبح إبراهيم عليه السلام مرّةً واحدةً في سورة الصّافّات حيث قال تعالى ذكره:

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾

---

(١) هو الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله، انظر تفسيره: ٢٣/ ٨٥.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ٩٧ـ١١٤].

وإنّما أوردنا ههنا شيئاً قليلاً من السابق والتّالي لقصّة الذبح، لتعلم أنّا لم نترك منها حرفاً واحداً.

واعلم أنّ هذه الآيات، وإن لم تصرّح باسم الذبيح، فإنّما تضمّنت لوامعَ جمّةً يُستدَلّ بها على أنّه هو إسماعيل عليه السلام. ومدار البحث ههنا أن نعلم أيّ ابني إبراهيم عليه السلام هو المراد في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فإنّه هو الذبيح بالاتّفاق بصراحة الدّلالة. والآن فلنذكر تلك اللّوامع، ونبيّن وجه الاستدلال بها، فنقول وبالله التّوفيق:

(٢٠)
الاستدلال الأوّل
بكون ذكر الذبيح موصولاً بالدّعاء

دعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنّما كان حين لم يكن له ولد، وإلّا لقيل له: قد وهبنا لك من الصّالحين، وقد صرّح التوراة بذلك كما مرّ في الفصل السادس والسابع. فههنا ذكر الله الإجابة في عقب الدّعاء، ووصلهما بالفاء، فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ فدلّ على أنّ ذلك ذكر الولد الذي أعطاه الله إجابةً لدعائه حين لم يكن له ولد. فلا بدّ أن يكون هذا الغلام الحليم أوّل مولود لإبراهيم عليه السلام، وصرّح بكونه ذبيحاً، فلا بدّ أن يكون إسماعيل عليه السلام الذي هو أوّل مولود لإبراهيم عليه السلام ذبيحاً.

وليس الاستدلال بأنّ دعاءه لم يكن إلاّ لولد واحد كما زعم الرازي رحمه الله ـ وسيأتيك ذكره في الفصل السادس والثلاثين ـ فإنّه كان دعاءً عامّاً محوَّلاً إلى فضل الربّ تعالى، سواء أعطاه واحداً من الصّالحين أم أكثر، مع إشارة خفيّة إلى الكثرة، وهذا هو الأولى في موقع الدّعاء، كما ترى في دعائه في موضع آخر: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم ١٤ : ٤٠]، أي عدداً محوّلاً إلى فضلك.

وبالجملة فنقول: إنّ الدّعاء، وإن اشتمل على كلّ من يعطيه الله من الصالحين من ابن وابن ابن، فإنّما المذكـور في قولـه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ هو الابن الذي ولد له قبل سائر ذرّيّته إجابةً لدعائه، وهو إسماعيل عليه السلام، فإنّ ذكره وُصِلَ بالدّعاء، وفُرِّعَ عليه، فهو الذي وقعت به الإجابة. ثمّ مَن وهبه الله بعد ذلك كان فضلاً ونافلةً.

وقد صرّح القرآن بذلك حيث قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء ٢١ : ٧٢] أي نحلةً نافلةً من عندنا. ولذلك سمّى إبراهيم عليه السلام أوّل أولاده (إسماعيل) أي سمع الله. فإسحاق ويعقوب عليهما السلام، وإن كانا داخلين في عموم الدّعاء والهبة، فإنّ المذكور في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ لا يكون إلاّ من وهبه الله تعالى حين لم يكن له ولد. ولا فرق بين إسحاق ويعقوب في أنّ الله وهبهما نافلةً، بل ذلك أظهر في إسحاق عليه السلام، فإنّه ولد من غير دعاء ولا انتظار، كما سيأتيك في الفصل الثالث والعشرين.

وأمّا ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المراد بالنّافلة هو يعقوب عليه السلام خاصّةً، لما توهّم أنّ إسحاق عليه السلام كان إجابةً لدعاء أبيه دون يعقوب عليه السلام، فإنّما هو لما تلقّى من أخبار اليهود. وبناءً على هذا التأويل توهّم بعضهم أنّ (النّافلة) يقال لولد الولد. وأدخل المقلّدون ذلك في كتب اللّغة من غير سند من كلام العرب. وأئمّةُ اللّغة منكرون لهذا المعنى للنّافلة، فلا يغرّنك هذه الأقاويل.

(٢١)

الاستدلال الثاني

بنظير هذا الدّعاء من جهة النّظم

كما أنّ الله تعالى ذكر الذبيح في هذه القصّة متّصلاً بالدّعاء، وذكر إسحاق عليه السلام بعده، فكذلك ذكرهما في موضع آخر حيث ذكر شكر إبراهيم على إجابة دعائه، وهو:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٩].

فالدّعاء المذكور ههنا يشير إلى دعائه المذكور في قصّة الذبح وهو: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٠].

وإذ قد تبيّن تطابق الموضعين في ذكر الدّعاء والإجابة، فلا يخفى أنّ الله تعالى ههنا أيضاً ذكر الموهوب له أوّلاً بقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠١] والموهوب له ثانياً بقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١١٢].

(٢٢)

الاستدلال الثالث

بتطبيق النّظيرين من جهة أخرى

في الآية التي تلوناها آنفاً لم يكتف بتقديم إسماعيل في مقام الشكر، بل دلَّ أيضاً على أنّه إنّما سمّي (إسماعيل) لكونه هو إجابةَ دعائه، فقال: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٩] واسم (إسماعيل) معناه: سمع الله، كما مرّ. فكأنّه قال: الحمد لله الذي وهب لي إسماعيل إجابةً لدعائي، ثمّ وهب لي إسحاقَ نافلةً، كما مرّ.

وهكذا في قصّة الذبح دَلّ بوصل الموهوب له أوّلاً بالدّعاء على أنّه إجابة لدعائه، فتطابق الموضعان في ذكر الدّعاء والموهوب إجابةً، ودلّ في الأوّل على أنّه إسماعيل، وفي الثاني على أنّه هو الذبيح، فدلّ بذلك على أنّ المراد في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٠ ـ ١٠١] لا يكون إلاّ إسماعيل عليه السلام.

(٢٣)
الاستدلال الرابع
باستقراء النّظائر في بشارة إسحاق عليه السلام

لا شكّ في أنّ ههنا ذكر بشارتين: بشارة بغلام حليم موصولة بالدّعاء، وبشارة بإسحاق غير موصولة بالدّعاء. وقد جاء ذكر البشارة بإسحاق في مواضع من القرآن، وليس في أحد منها أنّها كانت من انتظار أو دعاء، فضلاً أن تُذكَر متعاقبةً للدّعاء وموصولةً به بالفاء.

وهكذا في التّوراة، فإنّها تذكر بشارة إسحاق عليه السلام حين لم يكن إبراهيم عليه السلام ليستشرف إليها ولا يرجوها بل تعجَّب منها لمّا سمعها. ففي سفر التكوين (١٧ : ١٧): «ألا بن مئة سنة يولد أو سارة ابنة تسعين سنة تلد».

وقد وعد الله إبراهيم أن يرزقه ولداً، فلو كان إسحاق عليه السلام هو الموعود لم يتعجّب إبراهيم عليه السلام من بشارته. فهذه البشارة التي وصلت بالدّعاء إجابةً له لا تكون في إسحاق عليه السلام. وهذا دليل مستقلّ بنفسه.

ثمّ هي لا تكون في إسحاق لكونها خلاف سائر البشائر الإسحاقية التي لم تُذكَر متفرّعةً على الدّعاء، وذلك حملاً للنّظير على النّظير، فلا بدّ أن تكون هذه في إسماعيل الذي جاء إجابةً لدعاء أبيه. وقد صرّح القرآن بكون صاحب هذه البشارة ذبيحاً، فإسماعيل عليه السلام هو الذبيح.

(٢٤)
الاستدلال الخامس
بأنّ البشارة الأولى غير الثّانية

لا يخفى أنّ ظاهر العطف بين البشارتين يدلّ على كون المبشَّر بهما اثنين، والاعتذارُ بأنّ البشارة الأولى كانت من جهة كون إسحاق عليه السلام غلاماً حليماً والثانية من جهة كونه نبيّاً مخالفٌ لظاهر القرآن من غير دليل.

وهذا يتّضح من النّظر إلى الجملتين معاً، مثلاً تقول: «قال إبراهيم عليه السلام: ربّ هب لي من الصّالحين. فبشّره الله بغلام حليم، وكان من أمره كذا وكذا. وبشّره الله بإسحاق نبيّاً من الصّالحين». وقد علمنا من غير خلاف بين أهل الكتاب والمسلمين أنّ غلاماً حليماً قد ولد لإبراهيم عليه السلام قبل إسحاق، فما المُحْوِج إلى جعل المعطوفين واحداً خلافاً لظاهر الكلام؟.

وعلى هذا فالمذكور في البشارة الأولى (وهو الذبيح) غير المذكور في البشارة الثانية (وهو إسحاق).

(٢٥)
الاستدلال السادس
بأنّ البشارة بإسحاق تتضمّن ما يمنع كونه ذبيحاً

لا يخفى أنّ الذبيح حين قرّب كان غلاماً لم يدخل في حدّ الرّجال، لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٢]، ولخطاب إبراهيم إيّاه بقوله: «يا بنيّ». وهكذا في التّوراة. والبشارة بإسحاق تتضمّن البشارة بنبوّته، فكيف يمكن لإبراهيم أن يظنّ أنّه أُوحِيَ بذبحه بعد صراحة البشارة من الله تعالى بخلاف ذلك؟.

ولمّا كان هذا الأمر في غاية الوضوح سعَوا لدفعه بوجهين:

(الأوّل) بأنّه أمر بذبحه بعد ما صار نبيّاً، وأنّ المراد بالسّعي هو السّعي في الأعمال، وأنّ خطاب «يا بنيّ» لمحض المحبّة. وكلّ ذلك في غاية البعد عن ظاهر القرآن وتصريح التّوراة بأنّ القربان كان غلاماً صغيراً.

(والثاني) بأنّ البشارة بنبوّته هي بشارة أخرى وجاءت بعد تقديمه قرباناً، فنقول: هذا الاعتذار بعيد جدّاً ومع ذلك لا يُجدي شيئاً.

أمّا كونه بعيداً فالبشارة بإسحاق عليه السلام جاءت في التوراة، وكثر ذكرها في القرآن، وكلّها ما كان قبل ولادته. فتقدير البشارتين فيه تقوّل من غير دليل وخلاف لنظائرها.

وأمّا عدم جدواه فإن الله تعالى بشّر بإسحاق وبابنه معاً قبل ولادته، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود ١١ : ٧١] أي بابنٍ وابنٍ لذلك الابن. والإخبار بأبوّته أشدّ منعاً عن كونه ذبيحاً من الإخبار بنبوّته، فبطل الفائدة التي تمنّوها من تقدير البشارتين، وعاد الأمر إلى ما هو الظّاهر: وهو أنّ البشارة به إنّما كانت واحدة، وهي التي جاءت قبل ولادته.

ولتضمّنها الخبر عن نبوّته مرّةً، وعن أبوّته أخرى، تمنع أن يكون هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠١ ـ ١٠٢] الآية.

(٢٦)
الاستدلال السابع
بما فرّق الله به بين الذبيح وإسحاق من وصفَي الحلم والعلم

الذي صار قرباناً وُصِفَ بكونه حليماً. وأمّا إسحاق عليه السلام فوصف بكونه عليماً، كما جاء في سورة الذاريات: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات ٥١ : ٢٨].

ولا يخفى أنّ الحلم خلق جليّ يُرَى فيمن أوتي الفهم والصبر، ويظهر من الصّغَر. وأمّا العلم فلا يظهر إلّا بعد تجربة الأمور والتحنّك. ألا ترى قوله تعالى في قصّة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف ١٢ : ٢٢]؟ وذلك في غاية الظهور.

فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنّ هذا الغلام يشِبّ، ويصير من العلماء. وهذا نظير لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١١٢] أي إنه يشِبّ، ويكون من الأنبياء.

والبشارة بإسحاق عليه السلام بكونه عليماً إنّما جاءت قبل ولادته، فلا بدّ أنّها تمنع أن يكون هو الذبيح. وذكر الذبيح بكونه حليماً ينبّه على الفرق الذي ذكرنا.

(٢٧)

الاستدلال الثامن

بما جمع الله به بين الذبيح وإسماعيل من وصفه بالصّبر

ويشبه ذلك ما ذكر الله تعالى من قول الذبيح في هذه القصة:

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٢]، وإسحاق عليه السلام مع كثرة ذكره في القرآن لم يُوصَف بكونه صابراً.

وأمّا إسماعيل، فقد وصفه الله بالصبّر كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ : ٨٥]، وتقديمه في الذكر أبلغ في بيان اتّصافه بهذه الصّفة. ومن يكون أصبرَ وأحقَّ بأن يُوصفَ به مِن غلام أسلَم نفسَه لربّه؟ فلو كان ذلك لإسحاق لوصفه الله تعالى به، وعرّفه بهذا الخلق العظيم.

(٢٨)

الاستدلال التاسع

بما جمع الله به بين الذبيح وإسماعيل من وصفه بصدق الوعد

ويشبه ذلك ما ذكره الله تعالى من وصف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ممّا يشير إلى هذه الواقعة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم ٥٣ : ٣٧] أي وفّى بنذره ـ وهو الظاهر ـ أو بذمم الطاعة. وهكذا قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم ١٩ : ٥٤].

فإن كنتَ موقناً بأن القرآن لا يذكر أمراً إلاّ وله شأن عظيم أيقنتَ بأنّ إسحاق عليه السلام لو كان هو الذبيح لوَصَفه الله تعالى بهذا الوصف، وعرَّفه له في القرآن أو التّوراة، ولكن الله تعالى لم يصفه به فيهما، وإنّما وصف به إسماعيل عليه السلام.

ثمّ لم يذكر في القرآن ولا في التوراة من أمر إسماعيل ما يكون مصداق هذا الوصف، غير ما تتلوه في حال الذبيح من قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات ٣٧ : ١٠٢]. فوعد بالصّبر ثمّ صدّقه حين أسلَم نفسَه وسكّنها تحت السكّين، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٣].

فالمطابقةُ بين وصف إسماعيل والذبيح، وعدمُ تأويلٍ آخرَ لما وصف الله به إسماعيل، وعدمُ وصفِ إسحاق عليه السلام بما كان أجدرَ بالذكر لو كان هو الذبيح كلُّ ذلك لا يدع شكّاً في أنّ إسماعيل هو الذبيح.

(٢٩)

الاستدلال العاشر
بما فرّق الله بين الذبيح وإسحاق بذكرهما ذكراً مستقلاً

بعد ما ذكر الله تعالى المبشَّر به الذي صار ذبيحاً، والمبشَّر به الذي هو إسحاق، ذكر من أحوالهما بقوله: ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١١٣]، فجعلهما اثنين مرّتين، وإذ ثبت أنّ المبشَّر به أوّلاً غير المبشَّر به ثانياً، والذبيح هو الأوّل، وإسحاق هو الثاني، ثبت ما ادّعيناه.

وأمّا القول بأنّ المراد ههنا بالاثنين هو إبراهيم وإسحاق عليهما السلام فهو تأويل ضعيف لوجوه:

(أ) قد فرغ عن ذكر بركة إبراهيم عليه السلام بما سبق من قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٩ ـ ١١١] ألا ترى فيما تقدّم وتأخّر من ذكر المرسلين كيف ختم ذكرهم بمثل هذه الجملة؟ وذلك قوله تعالى:

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ٧٨ ـ ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٢٠ ـ ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٣٠ ـ ١٣٣].

وختم السورة بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٨١ ـ ١٨٢].

فالظّاهر أنّه بعد الفراغ عن قصّة إبراهيم ختمها بالسلام عليه، ثمّ ذكر ما خصّ به ذرّيّته، وإذ قد اشتمل قصّته ذكر بشارة ابنه الأوّل أعقبه ذكر بشارة ابنه الثاني، ثمّ ختم ذكرهما ببركتهما كذكر سائر الأنبياء.

(ب) قد جعل الله البركة لإسماعيل وإسحاق، وأعطى ذرّيّتهما موضعَين مباركَين، وقد دعا إبراهيم عليه السلام لبركة مسكن إسماعيل، وقد صرّحت التوراة بأنّ الله تعالى بارك إسماعيل عليه السلام. فهذه الوجوه تستدعي ذكر بركتهما، فلا يَصرِف عنه إلاّ دليلٌ يُلجِئ إلى التخصيص. وإذ لا وجه للتخصيص فلابدّ أن يؤخذ بما هو أوسع وأحسن تأويلاً، وهو ذكر بركة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فكأنه قيل: وباركنا على إسماعيل وإسحاق، ومن ذرّيّتهما محسن وظالم لنفسه مبين.

(ج) كما أنّ الله تعالى ذكر بركته على عباده الصّالحين في مواضع من القرآن، واعتنى بذكر بركته على خواصّهم، فذكر بركته على إسماعيل وإسحاق في التوراة والقرآن ليعلم ذرّيّتهما من العرب واليهود ما يجب عليهم من الشكر، فكذلك كان حريّاً بالذكر أنّهم صاروا قسمين: فمنهم من أحسن ومنهم من ظلم نفسه، لكي يتذكّروا.

وهذا كثير في التوراة والقرآن، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد ٥٧: ٢٦].

أيضاً: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر ٣٥: ٣٢].

فهكذا ههنا نبّه العرب واليهود كليهما على ما دخل فيهما من الفساد. وسيأتيك بعض بيانه في أواخر هذا القسط.

فقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ يدلّ بظاهره على أنّ المراد به ذكر ذرّيّة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، فإنّ الإخبار بكون بعضها محسناً وبعضها ظالماً لنفسه كما يطابق بذرّيّة إسحاق فهكذا يطابق بذرّيّة إسماعيل عليه السلام، والقرآن أحسن جوامع الكلم.

وهذا المعنى الحريّ بالذكر لا يظهر بصرف الضّمير إلى إبراهيم وإسحاق عليهما السلام. وذلك بأنّك حينئذ إمّا أن تريد ذرّيّة واحدة أي الذرّيّة المشتركة بين إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، كما جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام في بني إسماعيل عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة ٢: ١٢٨]، فأراد بـ (ذرّيّتنا) ذرّيّة إسماعيل التي هي ذرّيّة إبراهيم عليه السلام أيضاً، فعلى هذا يصير الخبر مختصّاً بذرّيّة إسحاق فقط، فلم يحصل المعنى المقصود، وصار ذكرُ ما هو الأهمّ متروكاً.

وإمّا أن تريد ذرّيّتين: الأولى ذرّيّة إسحاق الخاصّة وهم يعقوب ونسله وعيص ونسله، والثّانية ذرّيّة إبراهيم الخاصّة به قبل ذلك، وهم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أنفسهما؛ فذلك لا يصحّ فإنّ ذرّيّة إبراهيم المخصوصة به ليس فيها ظالم لنفسه.

فالآن لم يبق لك إلاّ القول بأنّ المراد ههنا ذرّيّة إسماعيل وذرّيّة إسحاق، ولكن عبّر عن ذرّيّة إسماعيل بذرّيّة إبراهيم. فنقول: هذا المعنى أظهر إذا صرف الضّمير إلى إسماعيل عليه السلام الذي سبق ذكره وإلى إسحاق عليه السلام الذي يتلوه، ثمّ قد سبق ذكرهما في قوله: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١١٣] حسبما بيّنّا آنفاً، ثمّ لا داعية ههنا للتعبير عن ذرّيّة إسماعيل عليه السلام بذرّيّة إبراهيم عليه السلام، ولجعلها في مقابلة ذرّيّة إسحاق.

فتبيّن أنّ كلّ هذه التأويلات تكلّف وتعسّف. وعاد الأمر إلى ما هو

الظّاهر، وهو صرفُ الضّمير في ذرّيّتهما إلى إسماعيل عليه السلام الذي سبق ذكره وإلى إسحاق عليه السلام. وذلك ما ادّعيناه.

(٣٠)
الاستدلال الحادي عشر
بأنّ عدم تسمية الذبيح دليل على أنّه هو إسماعيل عليه السلام

ليس لقائل أن يقول: إن كان إسماعيل عليه السلام هو الذبيح فَلِمَ لم يصرّح القرآن به؟ فإنّ هذا السؤال عائد عليه في أمر إسحاق عليه السلام على سواء مع أنّه لم يكن مانع لذكره.

وأمّا إسماعيل عليه السلام فلعدم التصريح باسمه وجوه من الحكمة:

الأوّل: أنّه من عادة القرآن الصّفح والإعراض عن اللجاج الذي لا ينفصم، لكيلا يشتغلَ الخصم به، ويتركَ ما يُلقىَ إليه من الحجّة الدّامغة. وقد أدخلت اليهود اسم إسحاق عليه السلام في قصّة الذبح، فلو صرّح القرآن بخلاف ذلك لتمسّكوا بما في كتبهم، وجادلوا بباطلهم، وأنكروا بما جاء به النّبيّ لخلافه الصّريح بما عندهم؛ فالقرآن يُلزِمهم ما كان موجوداً في صحفهم، أو كان ظاهراً بيّناً عند العقل، لكيلا يترك لهم مُتمسَّكاً وعذراً، وقد أشار إلى ذلك في غير ما آيةٍ تارةً يخاطب النّبيّ ويأمره بالصّفح عنهم، وتارةً يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلاّ بحسن القول، وتارةً يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى مسلّماتهم.

ونذكر ههنا بعض الأمثلة. قال تعالى مخاطباً لنبيّه:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة ٥: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة ٥ : ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران ٣ : ٦٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت ٢٩ : ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ٣: ٦٥ ـ ٦٦].

ولهذا الأسلوب من الخطاب بهم أمثلة كثيرة.

وبالجملة فإن القرآن قد اجتنب مجادلتهم فيما تمسّكوا بظاهر الكتاب، وفي ذلك حكمة بيّنة لعدم التصريح باسم الذبيح، فلو كان هو إسحاق عليه السلام لم يكن مانع عن تسميته ههنا.

والثّاني: أنّ الإسلام جعل الفخر بالآباء من أمور الجاهليّة، وجعل سعادة الإنسان وشرفه في استقلاله بأعماله. فعلى هذا الأصل كان أقرب إلى التكرّم أن لا يذكر على لسان النّبيّ في هذه القصّة التي جاء فيها ذكر إسحاق عليه السلام بعد الفراغ عن واقعة الذبح ما يكون تصريحاً بأنّ إسماعيل عليه السلام الذي كان من آبائه هو صاحب هذا الشّرف العظيم. وليت شعري ماذا يقول من يزعم أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام في عدم تسميته في هذه القصّة وبيان كونه ذبيحاً، مع كثرة ذكره والبشارة به لإبراهيم عليه السلام.

والثّالث: أنّ اليهود لم يقنعوا بإنكار هذا الشّرف لإسماعيل عليه

السلام، بل أدخلوا في التوراة أنّ إبراهيم عليه السلام أخرجه عن بيته مع أمّه، وأنّها كانت أَمَةً لسارة عليها السلام، ومعاذ الإله أن تكونها.

وقد عاد وبال هذا الإفتراء عليهم من غير مهلة، ثمّ ضُرِبت عليهم الذلّة والعبودية. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في تفسير سورة (ألم تر كيف...)[1].

وبالجملة فكان الفخر بالآباء قد سِيطَ من دمهم، ولذلك وبّخهم يحيى عليه السلام بقوله:

«يا أولاد الأفاعي مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً، لأنّي أقول لكم: إنّ الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشّجرة» (متى ٣: ٧ ـ ١٠).

فلو أسمعهم القرآن شيئاً ممّا كان للعرب من كرم المحتد وعلوّه لاهتاجوا إلى ذكر ما افتروه من كون هاجر عليها السلام أمّ أبيهم إسماعيل عليه السلام أمةً لسارة عليها السلام، ألا ترى أنّ القرآن مع كثرة ذكر سارة عليها السلام لم يأت ولو مرّةً واحدةً بذكر هاجر عليها السلام؟ فكان الأولى أن يجتنب التصريح بكون هذه الفضيلة لبني إسماعيل خاصّة.

وبالجملة فعدم التصريح باسم الذبيح أولى بكونه دليلاً على أنّه إسماعيل عليه السلام، فإن لم يصرّح باسمه، فقد دلّ عليه بوجوه كثيرة كما مرّ آنفاً.

الرّابع: أنّ التوراة التي بأيدي اليهود مشتملة على دلائل جمّة تنطق بأنّ إسماعيل هو الذبيح، وهو بكر أبيه، وهو صاحب البركة الدّائمة التي بورك بها جميع الأمم، مع فضائل أخر. ولا خفاء في عداوتهم به وبذرّيّته.

وإذ كان الأمر كذلك، كان أحسن أن يكتفى بتلك البيّنات التي في التوراة عند أعدائهم عن التصريح بها في هذا القرآن، فإنّه كما قيل:

---

(١) انظر تفسير سورة الفيل للمؤلف، الفصل الرابع، ص١١ - ١٢.

لاسيّما إذا كانت هذه الشهادة على رغم أنفهم وسعيهم في كتمانها.

ولا يخفى أنّ القرآن ملآن بذكر فضائل أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، بل هو الذي نَفَى عنهم كلّ ما أدخلوه في التوراة ممّا لا يليق برفيع منزلتهم، فلو كان فضيلة الذبح لإسحاق عليه السلام لصرّح بها القرآن.

(٣١)
الاستدلال الثاني عشر بما صرّح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل، وهو من جوامع الأدلّة

اعلم أنّ واقعة الذبح لمعة من سيرة إبراهيم عليه السلام. ولها موقع وأطراف لا تنفكّ عنها. فإذا أخذها النّظر بأطرافها اتّضح كلَّ الاتّضاح أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، وأنّ إسحاق عليه السلام على بُعدٍ سحيقٍ منه. والآن نذكر ذلك.

فاعلم أنّ أحوال إبراهيم عليه السلام تكشف عن سيرته الدينيّة في كمال العبوديّة والإخلاص لربّه، وعن سيرته الدّنياويّة في أجمل ما يكون من الكرم والمواساة.

ولا فرق بينهما في حقيقة الأمر، ولكنّ النّظر ههنا من الجهة الظاهرة في أحواله. فالأولى ترى في رحلته إلى مكّة، وبناء الكعبة، والحجّ، وإسكان بعض ذرّيّته عندها. والثانية ترى في خيمته بكنعان، وضيافته، ومجادلته بالربّ في قوم لوط. ولا يخفى أنّ واقعة الذبح جزء من الأولى، وواقعة بشارته بإسحاق عليه السلام جزء من الثانية.

وتفصيل هذا الإجمال أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا هاجر قومه لم تكن هجرته إلّا لأمر عظيم دينيّ، كما جاء في القرآن: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ

رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ٩٩]. وإذ تـرك أهله وعشـيرته دعا ربّه أنّ يعوّض له عنهم بخير منهم، كما جاء في القرآن من ذكر دعوته متّصلاً بما مرّ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٠]. فأجاب الله هذه الدّعوة، كما جاء متّصلاً بما مرّ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠١].

وفي التوراة أنّ الله تعالى كثّر له المال والحشم. وفيها أنّ الأرض التي تغرّب فيها أوّلاً ضاق مرعاها على سوائمه وسوائم ابن أخيه لوط، فافترقا، فذهب لوط إلى الشّمال، وإبراهيم إلى الجنوب[١]. وهذا مطابق بالقرآن فإنّ لوطاً هاجر معه، ثمّ حين جاء العذاب على قومه لم يكن مع إبراهيم عليه السلام، فلا بدّ أنّهما افترقا من قبل.

والظاهر من قصـة افتراقهما المذكورة في التوراة أنّ إبراهيم عليـه السلام ذهب متوالياً إلى الجنوب، وأيضاً أنّه اتّخذ لمسكنه بلداً أقلّ رعياً وخصباً ممّا أرسل إليه لوطاً، وأيضاً أنّ إبراهيم حفر سبع آبار وغرس أثْلاً[٢]، ولعلّه: نخلاً. والقرآن يوافق بذلك، فإنّه يذكر مجيئَه إلى مكّة وإسكانَه بها من ذرّيّته.

وإذ كان الأمر كذلك، لا بدّ من وقوع مدّة طويلة بين افتراقهما وبين نزول العذاب على قوم لوط. فإنّ الله تعالى لا يعجل بالعذاب قبل إطالة الدّعوة وإتمام الحجّة. ففي أثناء هذه المدّة حين اشتغل لوط بدعوته جرى إبـراهيم إلى غاية هجرتـه، فنزل وادي مكّة بابنه إسـماعيل عليه السلام، ورفعا أساس البيت، وجعله الله مثابةً للنّاس لذكره وشكره وتقريب الهدايـا لإطعام الفقراء الذين يزورونـه للحجّ والدّعـاء. ولذلـك أسـكن

---

(١) سفر التكوين: ١٣.

(٢) التكوين: ١٢/ ٩ و١٣/ ٣ ـ ١٢ و٢١/ ٣٣؛ وانظر التعليق في الفصل الخامس.

إبراهيم هناك بعض ذرّيّته ليخدم بيت الربّ، وفي هذه المدّة ابتلى إبراهيمَ عليه السلام ربُّه بذبح ابن له، فقرّبه، وفداه الربّ بذبح عظيم. ولا يخفى أنّ هذا طرف من سيرته الدّينيّة، وأنّ موقعه مكّة.

وأمّا الطرف الدنيويّ من سيرة إبراهيم عليه السلام فإنّه كان في خيمته بكنعان على قُربٍ من قرية لوط، إذ جاءته الملائكة، فهيّأ لهم القِرى. ولمّا علم أنّهم الملائكة، وأنّهم أُرسِلوا لإهلاك قوم لوط جادل الربّ فيهم. فإنّه كان أوّاهاً حليماً، فبشّرته الملائكة هناك بإسحاق.

فترى إبراهيم عليه السلام مرّةً بمكّة في نبوّته وإمامته مع ابنه إسماعيل عليه السلام يبني معه البيت، ويصلّي، ويطوف، ويؤذّن في النّاس بالحجّ ليأتوا إليه، ويُريهم المناسك، ويُعلّمهم الدّين الخالص. ومرّةً أخرى في كنعان في رياسته البدويّة صاحبَ المال والحشم يَقري الضّيوف ويواسي الضّعفاء.

والآن فانظر أين تضع واقعة التضحية؟ فإنّه من الظّاهر:

(١) أنّ التضحية لا تنفكّ عن بيت الله وموضع النّسك والصّلاة.

(٢) وكذلك الذبيح الذي قرّبه لا بدّ أن يكون هو الخادم لهذا البيت والساكن عنده.

(٣) وكذلك لا بدّ أن يكون هذا البيت وهذا المنحر هما أكبر مشاعر الله للنّاس لتعظيم الربّ وتذكار العبوديّة.

(٤) وكذلك بعد ما تقبّل الله هذه التضحية وهذه المشاعر لا بدّ أن يبقَيا إلى الأبد.

(٥) وكذلك ولذلـك لا بدّ أن يجعل هذا المكان مأمونـاً مـن كيد الأعداء .

وقد بيّن القرآن هذه الأمور كلّها :

(١) فذكر أن بيتَ مكّة أوّل بيتٍ وُضِعَ للنّاس مثابةً ، فجعل الحجّ إليه فرضاً، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يعلن به في النّاس .

(٢) وكذلك ذكر كونَ إبراهيم وإسماعيل بانيَين وخادمَين لهذا البيت .

(٣) وكذلك ذكر أنّ الصّفا والمروة من شعائر الله ، وجعل المنحر عند هذا البيت .

(٤) وكذلك ذكر أنّ الحجّ إليه والنّحر لديه سنّة باقية إلى الأبد، وجعله ذِبحاً عظيماً .

(٥) وكذلك ذكر أنّ الله تعالى جعل هذا الموضع مأموناً من كيد الأعداء إجابةً لدعاء إبراهيم .

فهذه خمسةُ أمورٍ عظامٍ منوطةٌ بواقعة الذبح ممتزجةٌ بها متعانقةٌ بعضها ببعض . فمن سرح فيها النّظر وأحاط بها تصوّراً تبيّن له أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذبيح . بل نقول : إنّ في كلٍّ منها دلالةً عليه ، فإنّ الجزء يُستدَلّ به على الكلّ وعلى باقي الأجزاء .

وقد استدلّ بذلك العلماء قِدْماً، وسنذكره في ذكر أقوالهم . وأحسنُها وأبلغُها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله ، وسيأتيك في الفصل السادس والثلاثين .

ولا يخفى أنّ ذلك من جوامع الأدلّة . فإنّ طريقَ الاستدلال فيه جمعُ الأمور الدّالّة حول نقطة واحدة، وبيانُ دلالتها جملةً وانفراداً على المطلوب .

واعلم أنّه لمّا كان دلالةُ هذه الأمور على كون إسماعيل عليه السلام ذبيحاً وعلى أمور أخر ممّا كتمته اليهود واضحةً بيّنةً، قلّ اعتناء القرآن بإثباتها تفصيلاً وتصريحاً، لوجوه ذكرناها في الفصل الثامن عشر. ولكن جاء بها في غضون قصّة إبراهيم عليه السلام، فأردنا التنبيه عليها في هذا الفصل. وربما ذَكَرها على سبيلِ الردّ، ونذكر هذا النّوع في الفصل التّالي بعون الله وتوفيقه.

(٣٢)
الاستدلال الثالث عشر بما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل وهذا أيضاً من جوامع الأدلّة

قد ذكرنا في الفصل السابق من أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومكّة، وبيت الله العتيق، وبناءِ إبراهيم وإسماعيل إياه، وإسكانِ ذرّيّته عنده، وجعلِه مثابةً للنّاس ومنحراً لقرابينهم، ما يُستدلّ به على أنّ إسماعيل هو الذبيح.

وأمّا هذا الفصل، فنذكر فيه كيف نبّه القرآن بنفسه على ما ارتكبت اليهود من التبديل والتحريف لما عندهم في هذه الأمور، لكي يَلبِسوا ما هو الحقّ بعدَ ما بيّنه الله في الصّحف الأولى.

وهذا أمر قد صرّح به القرآن في مواضع، مثلاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران ٣: ٧٠ - ٧١] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ

﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة ٥ : ١٥]. ومثل ذلك كثير.

فالغرضُ في هذا الفصل ليس محض سرد الأدلّة بل بيان أنّ القرآن بنفسه حاجَّهم، وزَجَرهم على كتمانهم الحقّ. وهذا أشدُّ صراحةً وأدلُّ على عظيم منزلة هذه الأمور التي كتموها حسداً وعداوة.

فاعلم أنّهم احتالوا لذلك من وجوهٍ أكبرُها خَمسٌ، فنقتصر بذكرها، ونعقبها ما نبّه عليه القرآن بعجيب نظمه وحسن منهجه في ردّ الأباطيل حسبما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل ١٦ : ١٢٥].

أمّا الوجه الأوّل: فإنّهم أبهموا مكان البيت الذي بناه إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام بمكّة، وجَعَلَه مثابةً للنّاس وموضعَ الحجّ والصّلاة. وفي التوراة أنّ إبراهيم عليه السلام سكن شرقيَّ بيت الله، وأقام هناك مذبحاً، ودعا الله هناك[1]. فلمّا بعث الله النّبيّ ﷺ ادّعوا أنّ هذا بيت الله هو الذي عندهم، مع علمهم بأنّ الذي عندهم إنّما بناه سليمان عليه السلام. فردّ الله عليهم حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٣ : ٩٦_٩٩].

فاحتجّ على أهل الكتاب بآيات بيّنات على أنّ هذا البيت الذي

---

(١) سفر التكوين: ١٢/٨.

ببكّة هو الذي بناه إبراهيم، وقام هناك يدعو ربّه للبركة والأمن وجَلْبِ قلوبِ النّاس إليه، فأعطاه الله كلَّ ذلك.

وظاهر الكلام هو الاستدلال على ثلاث صفات البيت بثلاث آيات: على أوّليّته بكون مقام إبراهيم عنده بالاتّفاق، وعلى بركته بكونه مأموناً محرّماً عند جمهور النّاس مع شدّتهم في الحروب، وعلى كونه هدىً للنّاس بفرض الحجّ، فإنّ ذكر الله الواحد قد بقي في العرب مع انهماكهم في الشرك.

ثمّ بعد ذلك ردّ على أهل الكتاب لكفرهم بها وصدّهم عنه، ثمّ ذكر البلد باسم (بكّة) بمعنى البلدة كما سمّاه إبراهيم عليه السلام، ودلّ به على تحريفهم في (مزمور: ٨٤) حيث جعلوه (وادي البكاء).

وأمّا الثاني: فإنّهم جعلوا المنحر المشهور الذي قرّب عليه إبراهيم في مساكنهم عند بيت المقدس. وقد مرّ في الفصل الثامن بيانُ تحريفاتهم في ذلك، وإثباتُ أنّ المروة التي عند الكعبة هي المنحر الإبراهيمي.

ولم يكن مقصدهم في ذلك إلاّ إخفاءَ ما جعل الله لإسماعيل وذرّيّته من الشّرفِ الممجّد والأثرِ المخلّد والإمامةِ الدينيّة إلى الأبد. فجاء القرآن بتبكيتهم في هذا الأمر حيث ثبّت قلوب المسلمين حين هداهم إلى القبلة الإبراهيمية، وكبُر ذلك على أهل الكتاب، واعترضوا عليه، فقال تعالى:

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ

رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾، كان على الصفا والمروة صنمان ويعظّمونهما في سعيهم في الجاهلية، فتحرّج المسلمون من هذا الطّواف فبيّن الله أنّهما من شعائر الله لكونهما من مواضع ذكره وشكره ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُولَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة ٢: ١٥١ ـ ١٦٠].

فإن تأمّلت في هذه الآيات ونظمها العجيب وجدت خمسة أمور في غاية الربط والمناسبة: وذلك أنّ القرآن يذكر ههنا بعثة هذا النّبيّ حسب دعاء إبراهيم فيه وحسب وصفه إيّاه، ثمّ يدلّنا على ما هو الأصل والأساس لهذا الدّين الحنيفيّ، وهو ذكر الله والشكر والصّبر والصّلاة، ثمّ يبشّرنا بما جعل الله تعالى من البركة والرحمة لأهله، ثمّ يتبع ذلك ذكر الصّفا والمروة لما سعى إبراهيم بابنه عليهما السلام بينهما، وقرّبه هناك، فصارتا أكبر مظاهر الصّبر والصّلاة والذكر والشّكر، ولذلك جعلهما الله تعالى من شعائره المعظّمة، ثمّ يتبع ذلك التشنيع الغليظ على الذين كتموه حسداً وكفراً بعد ما بيّنه الله في كتابه القديم.

فمن كان مطّلعاً على أنّ اليهود والنّصارى قد بالغوا في تبديل موضع المروة ـ كما مرّ في الفصل الثامن ـ تبيّن له أنّ المراد بذلك ليس إلاّ التلميح إلى ما حرّفت اليهود في اسمها ورسمها وموضعها حسداً بإسماعيل عليه السلام وذرّيّته، فردّ الله عليهم بإشارة لطيفة.

وأمّا الثالث فإنّهم افتروا قصّة إخراج إسماعيل وأمّه عليهما

السلام من مسكن إسحاق وأمّه عليهما السلام إلى بريّة فاران، لما أنّها سخطت بهما، ولم ترض بأن يرث إسماعيل عليه السلام مع ابنها إسحاق عليه السلام.

والكذب والتناقض في هذه القصّة ظاهر لمن ينظر فيما ذكروه في صحفهم. وقد اعترف به النّاقدون منهم في هذا الزّمان. فصرّح القرآن بأنّ إبراهيم عليه السلام إنّما أسكن بعض ذرّيّته عند بيت الله لإقامة الصّلاة والحجّ. وذلك حيث ذكر الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٧].

ثمّ فصّل ذلك حيث ردّ اعتراض أهل الكتاب على ردّ القبلة إلى أصلها. وذلك قوله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة ٢ : ١٠٥].

وفي ذلك الردّ بيّن غاية سكونة[1] إسماعيل عند بيت الربّ تعالى، فأبطل ما جعلوه منقصةً لإسماعيل بما كرّمه الله به مِن جَعلِه شريكَ أبيه وخليفتَه في بناء بيت الله المحرَّم وتطهيره للطّائفين والعاكفين والركّع السجود. وذلك قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ

---

(١) يعني السُكنَى.

يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ٢ : ١٢٢ ـ ١٣٤].

وهذا الردّ عليهم طويل ويشتمل وجوهاً من الإلزام. واكتفينا منه بما يلزمهم من اتّباع ملّة إبراهيم، وبيان مركزها ومناسكها، وتقدّم إسماعيل عليه السلام، واتّصاله بأبيه في الإمامة العامّة، وسبب إسكانه عند البيت، خلاف ما افتروا من أكذوبة إخراج إبراهيم إياه من عنده.

والعجب كلّ العجب من الذين أخذوا هذه الأكذوبة من اليهود وذكروه في سبب السعي بين الصّفا والمروة، أعاذنا الله من كيد الأعداء. قد حذّرنا الله تعالى عن ذلك حيث قال عزّ اسمه:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران ٣: ٦٩].

وأمّا الرابع فإنّهم أدخلوا اسم إسحاق عليه السلام في قصّة الذبح. ولكن التوراة نفسها تكذّب ذلك كما مرّ في القسط الأوّل، فاكتفى القرآن بذكر تلك القصّة بأحسن البيان، وجَعَل فيها دلائلَ جمّةً على أنّ الذبيح هو إسماعيل، كما مرّ آنفاً.

ولولا أنّ المراد به إبطالُ تبديلهم والتنبيهُ على تحريفهم لَمَا خالف ما ذكروه، ولَمَا قدّم البشارة بالذبيح على ذكر البشارة بإسحاق، وَلكانَ وجهُ القصّة أن يسمّى إسحاق في أوّل البشارة.

ذلك، ثمّ في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١١٣] إشارة لطيفة إلى ما ارتكبت اليهود من الحسد وكتمان الحقّ. فإنّ (الظّلم) كما يراد به الشّرك، فكذلك يراد به التكذيب بآيات الله، والافتراء على الله، وكتمان الشهادة. ولا يخفى ذلك على من تتبّع مواقع ذكره في القرآن.

و(الظالم على نفسه) ظاهر معناه: من ضرّ نفسه. وجاء في القرآن لمن عَرضَ لـه خيرٌ فرفضه، ولمن أراد ضرراً لغيره من غير حـقٍّ فانقلب عليـه وبالاً. وقد أكثر القرآن من ذكر ظلم اليهود وظلمهم على أنفسهم حسبما ذكرنا من الوجوه.

وعلى هذا فموقع ذكره في آخر هذه القصّة يشير إلى ما يخصّ بهذا المقام ممّا يتعلّق بذرّيّة إسماعيل وإسحاق. فأمّا بنو إسماعيل فمع كونهم ذرّيـة من أسـلم نفسـه لله، كما قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٣]، وورثةَ هذا البيتِ مركزِ التوحيد أشركوا بالله، فما أظلمهم على أنفسهم!.

وأمّا بنو إسحاق فقد وعد لهم الخيرات إن آمنوا بهذا النبيّ الأمّيّ، فحسدوا إسماعيل وذرّيّته، وكتموا الشّهادات التي عندهم فيه، وبذلك حرموا خيراً كثيراً، فما أظلمهم على أنفسهم! كما قال تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ٢ : ١٤٠].

وبالجملة فموقع الآية بعد ذكر قصّة الذبح لا يخلو عن إشارة إلى أمر يناسب ما تقدّم، والظّاهر ما ذكرنا من أمرهما، والله تعالى أعلم بما أودع كتابه من المعاني التي لا يحيط بها إلاّ هو.

وأمّا الخامس فإنّ الله تعالى لمّا ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام، ووجده كاملاً باركه. وكان أوّلُ ظهور هذه البركة أنّه تعالى جعل سارة أيضاً مثمرةً، وبشّره بولادة ابن منها، فكان إسحاق عليه السلام من بركات تضحية إسماعيل عليه السلام.

وقد جاء ذلك في التّوراة. ومع أنّ اليهود لَبَسُوا عليه، لا يخفى حقيقة الأمر على أهل النّظر. وقد ذكرناه في الفصل الحادي عشر. فتكرّم القرآن حسب عادته وضرب صفحاً عن تفضيحهم، ولكن أتى بالقصّة على وجهها، فذكر قصّة القربان، ثمّ ذكر السلام على إبراهيم عليه السلام، ثمّ وصل به أنّه تعالى بشّره بإسحاق.

فمن يتدبّر في نظم هذا الكلام، وكان عارفاً بما جاء في التوراة، يتبيّن له أنّ هذه القصّة تدلّ من وجهة نظمها على ما ذكرنا في الفصل الحادي عشر من كون البشارة بإسحاق من بركات إسماعيل عليه السلام وذبحه.

وإلى هذا إشارة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء ٢١ : ٧٢] أي أجاب دعاء إبراهيم في إسماعيل، فلمّا قرّبه لربّه أعطاه إسحاق ويعقوب نافلةً. وهذه الإشارة في غاية اللطافة. وقد

مرّ بعض الكلام في تأويل هذه الآية في الفصل العشرين فراجعه إن شئت.

وقد روي ذلك عن السلف، ففي الدرّ المنثور «أخرج عبد بن حميد عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة قال: قلت لابن المسيب: «وفديناه بذبح عظيم»، هو إسحاق؟ قال: معاذ الله! ولكنّه إسماعيل عليه السلام، فثُوِّبَ بصبره إسحاقَ»(١).

وهذا آخر ما تيسّر لنا ذكره في هذا القسط. وقد نبّهناك بما ذكرنا على جماع الأدلّة، ولو فصّلناها لصارت أكثر عدداً، ولكنّا اخترنا الثلاثة عشر كما اخترنا في القسط الأوّل رعايةً لِسني عمر إسماعيل عليه السلام حين قدّمه الخليل عليه السلام قرباناً لربّه، وباركهما الربّ لأجل ذلك خصوصاً. ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة ٢: ١٠٥].

---

(١) الدر المنثور: ٥/ ٥٣٦.

القِسْط الثالث

في ما روي في هذه المسألة، ونورد فيه أقوال علمائنا

(٣٣)

ذكر الروايات المختلفة
من الصحابة والتابعين والسلف الأوّلين بعدهم

اعلم أنّ الروايات في ذلك مختلفة . والنظر فيها يدلّ على ثلاثة أمور :

الأوّل : أنّ المسلمين براء من التعصّب فلم ينكروا ما روي لهم من كون إسحاق عليه السلام هو المفدي .

والثاني : أنّ هذه الروايات مأخذها أهل الكتاب .

والثالث : أنّ أهل النظر والعلم بالكتاب أيقنوا بأنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

وسيتّضح لك هذه الأمور ، فنقول : إنّه لا يصحّ من هذه الروايات ما يرفع إلى النّبي ﷺ . قال ابن جرير رحمه الله :

« وقد روي عن رسول الله ﷺ كلا القولين ، لو كان فيهما صحيح لم نَعْدُه إلى غيره ، غير أنّ الدليل من القرآن على صحّة الرواية التي رويت عنه ﷺ أنّه قال : «هو إسحاق» أوضَحُ وأبينُ منه على صحّة الأخرى»[1] .

فابن جرير رحمه الله إنّما رجّح صحّة رواية ذبح إسحاق عليه السلام لما توهّم أنّ دلالة القرآن عليها أوضَح وأبيَن ، فقصارى أمره ترجيح أحد الأمرين . وسنذكر ما استدلّ به مع انتقاده في الفصلين (٣٤ و٣٥) .

---

(١) تاريخ الطبري : ١/ ٢٦٣ .

وقال ابن كثير رحمه الله: «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنّ الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً. وليس في ذلك كتاب ولا سنّة. وما أظنّ ذلك تُلُقِّيَ إلاّ عن أحبار أهل الكتاب، وأُخِذَ ذلك مسلَّماً من غير حجّة»[1].

وقد روى ابن جرير رحمه الله القولين[2]: فروى عن العباس بن عبد المطلب وعن ابن عباس وعبد الله بن مسعود وكعب الأحبار وعبيد بن عمير وابن سابط وابن أبي الهذيل وأبي ميسرة ومسروق أنّ المفدي هو إسحاق.

ثمّ روى عن ابن عمر، وعن ابن عبّاس عدّة روايات بواسطة مجاهد والشعبي وعطاء بن رباح ويوسف بن مهران وسعيد بن جبير وأبي الطفيل، وروى عن عامر وعن يوسف بن مهران ومجاهد والحسن البصري ومحمّد ابن كعب القرظي أنّ المفدي هو إسماعيل.

وذكر ابن كثير[3] ناقلاً عن ابن أبي حاتم رواية ذلك أيضاً عن عليّ وأبي هريرة وسعيد بن المسيّب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح [وأبي الطفيل].

وذكر البغوي في تفسيره[4] روايته أيضاً عن الربيع بن أنس وأبي عمرو بن العلاء مع آخرين.

وكذلك ذكر السيوطي[5] رحمه الله رواية القول الأوّل أيضاً عن عليّ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٦.
(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٧٠؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨١ ـ ٨٥.
(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩.
(٤) معالم التنزيل: ٧/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٥) الدر المنثور: ٥/ ٥٣٠ ـ ٥٣٢.

وأبي هريرة وبهار وجابر بن عبد الله وسعيد بن جبير وأبي سعيد الخدري وقتادة والحسن ومجاهد وعثمان بن حاضر.

واعلم أنّ من هذه الروايات ما فيه تفصيل يدلّ على وقوع البحث والنظر في هذه المسألة. ولذلك ترى القولين عن عليّ وابن عبّاس وأبي هريرة ومجاهد وقتادة والحسن، فلا بدّ أنّهم رجعوا بعد النّظر إلى ما هو الصّواب. ونذكر هذه الروايات خاصّةً نقلاً عن ابن جرير رحمه الله.

الأولى: «حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال حدّثنا ابن وهب، قال أخبرني عمر بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عباس أنه قال: المفديّ إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود»[١].

وهذا صريح في أنّ الرواية منه بكون إسحاق هو الذبيح - إن صحّت - فإنما هي قبل نظره وحسبما سمع من أهل الكتاب.

الثانية: «حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إنّ الذي أمَرَ الله عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلام بذبحه من ابنيه إسماعيلُ. وإنّا لنجد ذلك في كتاب الله عز وجل في قصّة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبح ابنه أنّه اسماعيل. وذلك أن الله عزّ وجلّ يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١١٢] ويقول: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ١١: ٧١] يقول: بابنٍ وابنِ ابنٍ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الله من الموعود ما وَعَده. وما الذي أمر بذبحه إلاّ إسماعيل».

أيضاً: «حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة، قال قال محمد بن إسحاق:

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٢٦٨؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨٤.

سمعت محمد بن كعب القُرَظي يقول ذلك كثيراً»[١].

والثالثة: «حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال حدثنا محمد بن إسحاق، عن بُريدة بن سفيان بن فَروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القُرَظي، أنّه حدثّهم أنّه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، وهو خليفة، إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إنّ هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلتَ. ثمّ أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً، فأسلم، فحسن إسلامه، وكان يرى أنّه من علماء اليهود. فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك. فقال محمد بن كعب القُرظي: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أيُّ ابنَي إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين. وإنّ اليهود لَتعلم بذلك، ولكنّهم يحسدونكم معشرَ العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه يصبره على ما أمر به. فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنّه إسحاق، لأنّ إسحاق أبوهم»[٢].

انتهى ما رواه ابن جرير في تاريخه في هذه الرواية، ولكنّه زاد في تفسيره بعد ذلك: «فالله أعلم أيّهما كان، كلٌّ قد كان طاهراً طيّباً مطيعاً لربّه»[٣]. ولا شكّ أنّ هذه الزيادة لا تكون من قول محمد بن كعب، فإنّه كان لا يشكّ أنّ المفدي هو إسماعيل، كما تبيّن ممّا مرّ آنفاً. ولا يبعد أن يكون زيادة من ابن جرير، فإنّه إنّما رجّح كون إسحاق ذبيحاً باستدلال لا يخفى ضعفه عليه، كما سيأتيك ذكره. فإذ لم يكن على بيّنة وطمأنينة زاد هذا القول، وتبرّأ عن التعصّب.

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨٤.
(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٢٧٠.
(٣) تفسير الطبري: ٢٣/ ٨٥.

والرابعة: ما فيه ذكر قرينة تدلّ على كون إسماعيل هو المفدي وذلك عدّة روايات، فمنها:

«حدّثنا ابن المثنى، قال: حدّثني عبد الأعلى، قال: حدّثنا داود، عن عامر أنّه قال في هذه الآية «وفديناه بذبح عظيم» قال: هو إسماعيل، قال: وكان قرنا الكبش مَنوطَين بالكعبة»[١].

أيضاً: «حدّثنا أبو كريب، قال: حدّثنا ابن يمان، عن إسرائيل، عن جابر، عن الشعبي قال: الذبيح هو إسماعيل»[٢].

وأيضاً بهذا الإسناد عنه: «قال: رأيت قرنَي الكبش في الكعبة»[٣].

وأيضاً: «حدّثنا أبو كريب، قال حدّثنا ابن يمان، عن سفيان، عن جابر، عن أبي الطّفيل، عن عليّ عليه السلام «وفديناه بذبح عظيم» قال: كبش أبيض أقرَن أعيَن مربوط بِسَمُرٍ في ثَبِير»[٤].

وأيضاً: «حدّثنا ابن حميد، قال حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنّه كان يقول: ما فُدِيَ إسماعيل إلاّ بتَيسٍ كان من الأروَى أُهبِطَ عليه من ثَبِير. وما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لذبيحته فقط، ولكنّه الذَبحُ على دينه، فتلك السنّة إلى يوم القيامة. فاعلموا أنّ الذبيحة تدفع مِيتةَ السّوء فَضَحُّوا عبادَ الله»[٥].

ففي هذه الروايات ذكر الدليل على كون إسماعيل هو الذبيح. قال ابن كثير بعد ذكر رواية قرن الكبش: «وهذا دليل مستقلّ على أنّه إسماعيل

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٢٦٩؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تاريخ الطبري: ١/ ٢٧٦؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨٦.

(٥) تاريخ الطبري: ١/ ٢٧٧؛ وانظر تفسيره: ٢٣/ ٨٧، ٨٨.

عليه الصلاة والسلام»[1]. قلنا: وهكذا يدلّ ذكر (ثَبِير) في هذه الرواية.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ الروايات بكون إسحاق ذبيحاً إن صحّت، فإنّما هي قبل النظر حسبما سمعوه من أهل الكتاب. قال ابن كثير بعد ذكر الروايات في كون إسحاق هو الذبيح:

«وهذه الأقوالُ ـ والله أعلم ـ كلُّها مأخوذةٌ عن كعب الأحبار. فإنّه لما أسلم في الدولة العُمَرية جعل يحدِّث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضي الله عنه، فترخّص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثَّها وسمينَها. وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجةٌ إلى حرفٍ مما عنده»[2].

هذا، وقال ابن كثير: «قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أنّ الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام»[3].

فذلك ما ذكر في الآثار، والآن نذكر آراء المتأخّرين من مشاهير العلماء، مع نقد يسير إن دعت إليه حاجة.

(٣٤)

ذكر ما قال ابن جرير رحمه الله بعد ذكر الروايات

قال ابن جرير رحمه الله بعد ذكر الروايات من الفريقين[4]:

«وأمّا الدلالة من القرآن التي قلنا إنّها على أنّ ذلك إسحاق أصحّ،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ١٩.
(٤) تاريخ الطبري: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

فقوله تعالى مخبراً عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قومه مهاجراً إلى ربّه إلى الشام مع زوجته سارة: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصّافّات ٣٧: ٩٩ ـ ١٠٠]. وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أمّ اسماعيل، ثمّ أتبع ذلك ربُّنا عزّ وجلّ الخبرَ عن إجابتِه دعاءَه وتبشيرِه إيّاه بغلام حليم ثمّ عن رؤيا إبراهيم أنّه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي».

فهذا هو دليله الأوّل ثمّ أتبعه قوله متصلاً:

«ولا يُعلم في كتاب الله عزّ وجلّ تبشيرٌ لإبراهيم بولد ذكر إلاّ بإسحاق، وذلك قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ١١: ٧١] وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات ٥١: ٢٨ ـ ٢٩]. ثمّ ذلك كذلك في كلّ موضع ذُكِرَ فيه تبشيرُ إبراهيم بغلام فإنّما ذُكِرَ تبشيرُ الله إيّاه به من زوجته سارة، فالواجب أن يكون ذلك في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠١] نظيرَ ما في سائر سور القرآن من تبشيره إيّاه به من زوجته سارة».

وهذا هو دليله الثاني ثمّ أتبعه الجواب عن قول المخالف فقال متصلاً:

«وأمّا اعتلالُ من اعتلّ بأنّ الله لم يكن يأمر إبراهيم بذبح إسحاق، وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته بولادته وولادة يعقوب منه مِن بعدِه، فإنّها علّةٌ غيرُ مُوجِبَةٍ صحّةَ ما قال. وذلك أنّ الله تعالى إنّما أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السعيَ. وجائز أن يكون يعقوب وُلِدَ له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه. وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتلّ في ذلك بقرن الكبش أنّه رآه معلّقاً في الكعبة. وذلك أنّه غير مستحيل أن يكون حُمِلَ من الشام إلى الكعبة فَعُلِّقَ هناك»[1].

---

(١) وانظر تفسير الطبري: ٢٣/ ٨٥ ـ ٨٦.

انتهى قوله في هذه المسألة. والآن ننظر في استدلالاته، وبالله التوفيق.

(٣٥)
النظر في استدلال ابن جرير رحمه الله

لا يخفى أن ابن جرير رحمه الله ذكر دليلَين على كون إسحاق ذبيحاً، وأجاب عن اعتراضَين، فذلك أربعة أمور، فننظر فيها على الترتيب:

أمّا الأوّل فهو استدلاله بالاتّصال بين ذكر الدعاء والبشارة، فتوهَّم أنّه لمّا كان دعاء إبراهيم عليه السلام للولد قبل أن يعرف هاجر عليها السلام فلا بدَّ أنّه دعا للولد من سارة عليها السلام، والخبرُ بالبشارة متصلٌ بدعائه هذا، فلا بدَّ أن تكون البشارة بولد منها.

فنقول: إن عدم معرفته هاجر عليها السلام لا يلزم أن يكون دعاء إبراهيم مخصوصاً بولد من سارة عليها السلام، إنّما دعا عليه السلام دعوة عامّة، ولم يقترح على الله ـ ولا ينبغي ذلك ـ أن يعطيه ولداً من سارة عليها السلام خاصة. ويؤكد ذلك أنه لما أعطي ولداً من هاجر عليها السلام حَسبَه إجابة دعائه، فسمّاه (إسماعيل) أي سمع الله دعوته، كما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم ١٤ : ٣٩]. فلو كان دعاؤه لولد من سارة لسمّى إسحاق بهذا الاسم.

وإذ تبيّن عدم صحّة ما توهمّه ابن جرير رحمه الله عاد الاستدلال باتصال الدعاء بالخبر على أنّ المراد بالابن المذكور متصلاً بالدعاء هو المولود أوّلاً، كما مرّ بيانه في الفصل العشرين وفيما بعده. وهو استدلال محمد بن كعب القُرَظي رحمه الله بالقرآن، كما مرّ في الرواية الثانية من الفصل الثالث بعد الثلاثين.

وأمّا **الثاني** فهو استدلاله بالنظائر. وذلك أنّ كلّ تبشير لإبراهيم بولد ذكر في غير هذا الموضع فإنّما هو في إسحاق، فالواجب أن يكون ذلك أيضاً فيه.

فنقول: إنّ ذلك غير واجب بوجه من الوجوه. فإنّ ذكرَ أمرٍ في عدّة مواضع غيرُ مُوجِبٍ أن لا يُذكر أمرٌ آخرٌ في موضع آخر. وقصارى الاستدلال بالنظير هو الاحتمال إن لم يعارضه نظير آخر أو دليل على خلافه. وقد عارضه كلاهما من وجوه كثيرة ممّا ذكرنا.

ومنها أنّ التبشير بإسحاق عليه السلام لم يُذكر في موضع من القرآن متبوعاً بذكر الذبح ولا متصلاً بدعاء إبراهيم للولد. فهذا التبشير الخاصّ مغاير لسائر البشارات التي جاءت في إسحاق. ثمّ ذكر البشارة بإسحاق بعدها يؤيّد أنّ الأولى غير الثانية، فاستدلالهُ بالنظير مُعارَضٌ بأقوى منه.

وأمّا **الثالث** فهو جوابه عن امتناع كون إسحاق ذبيحاً، لما جاء في القرآن أنّه بُشّر به قبل ولادته بولادة يعقوب منه، فزعم رحمه الله أنّه «جائز أن يكون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه».

فنقول: إنّ ذلك ممّا لا سبيل إليه، فإنّ الذبيح كان غلاماً، وذلك ظاهر من التوراة والقرآن، ومسلّم بين الفريقين. وولد يعقوب عليه السلام في شيخوخة إسحاق عليه السلام، إمّا بعد موت إبراهيم أو قُبيله، كما مرّ في الفصل العاشر، فراجعه إن شئت. بل وقع هذا الابتلاء قبل ولادة إسحاق، كما بيّناه في الفصل السادس، والحادي عشر، وفي الوجه الخامس من الفصل الثاني والثلاثين.

وعلى كلّ حال فالجواب بأنّ إسحاق عليه السلام قُرّب بعد ما وُلِد له يعقوب عليه السلام في غاية الركاكة والاعتساف.

وأمّا **الرابع** فهو جوابه عمّا رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه وغيره

من رؤية قرن الكبش في الكعبة، فزعم رحمه الله « أنّه غير مستحيل أن يكون حُمِلَ من الشام إلى الكعبة فعلّق هناك ».

ولا يخفى أنّ دليل قرن الكبش ليس ممّا يُعوَّل عليه، ولا ذكر له في القرآن. فسواء عندنا أثبت أم لم يثبت، فلو ترك التعرّض له لكان أولى به. ولكن إذ أجاب عنه، فنقول: إنّ الإمكان العقلّي لَوسيع، ولكنّه مستحيل جدّاً في عادة الأمم أن يرضَوا بأن يُنقل من عندِهم آثارُهم المقدّسةُ القديمةُ، بل على مثل ذلك تُشَبُّ نيرانُ الحرب، وتُهراق المُهَج.

ومتى غلبت العرب على اليهود أو النّصارى قبل الإسلام حتى تَسلُبهم هذا الأثرَ المقدّسَ عندهم لو كان لهم؟ ولو وقع ذلك لاشتهر ذكره عند الفريقين.

فهذا غاية في توّهم الباطل، أعاذنا الله تعالى منه، وعفا الله تعالى عمّا سلف.

(٣٦)
ذكر ما في التفسير الكبير للرازي رحمه الله وما في الكشّاف مع تنبيهات يسيرة[(١)]

اعلم أن الرازي رحمه الله ذكر دلائل الفريقين تابعاً للعلاّمة الزمخشري رحمه الله. ومع أنّ عبارة الكشّاف أوجَز وأبيَن اخترنا النقل عن الرازي رحمه الله، لأنّ تفسيره أعظم شهرةً وتداولاً بين النّاس.

قال رحمه الله بعد ذكر أسماء الذين نُسِب إليهم القولان[(٢)]:

«واحتجّ القائلون بإنّه إسماعيل بوجوه:

---

(١) وهي تتخلّل كلامَ الرازي، فميّزناها بالحرف الأسود.

(٢) التفسير الكبير: ٢٦/ ١٥٣ ـ ١٥٥.

(الأوّل) أنّ رسول الله ﷺ قال: « أنا ابن الذبيحين ». وقال له أعرابيّ: يا ابنَ الذبيحين، فتبسّم، فسئل عن ذلك، فقال: « إنّ عبد المطلب لمّا حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهّل الله له أمرها ليذبحنّ أحدَ ولده، فخرج السهمُ على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا له: افد ابنك بمئة من الإبل، ففداه بمئة من الإبل، والذبيح الثاني إسماعيل».

هذه الرواية ذكرها ابن جرير، وذكره ابن كثير باختلاف يسير، وتعقّبه بذكر الضّعف في إسنادها. ولو صحّت لكانت قاطعة فإنّها صريحة.

«(الحجّة الثانية) نقل عن الأصمعي أنّه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعيّ، أين عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكّة؟ وإنّما كان إسماعيل بمكّة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكّة.

(الحجّة الثالثة) أنّ الله تعالى وصف إسماعيل بالصّبر دون إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ : ٨٥]، وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم ١٩ : ٥٤]، لأنّه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح، فوفى به».

لا يخفى أنّ فيها دليلين .

«(الحجّة الرابعة) قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ١١ : ٧١] فنقول: لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه، إمّا أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك. فالأوّل باطل، لأنّه تعالى لمّا بشّرها بإسحاق وبشّرها معه بأنّه يحصل منه يعقوب، فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلاّ لحصل الخلف في قوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾. والثاني باطل لأنّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٢] يدلّ على أنّ

ذلك الابن لمّا قدر على السعي، ووصل إلى حدّ القدرة على الفعل، أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه. وذلك ينافي وقوع هذه القصّة في زمان آخر، فثبت أنّه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق».

فيه تطويل غير طائل، ولكنّ وجه الاستدلال بيّن.

(الحجّة الخامسة): حكى الله تعالى عنه أنّه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات ٣٧: ٩٩] ثمّ طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به في غربته، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهذا السؤال إنّما يحسن قبل أن يحصل له الولد، لأنّه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأنّ طلب الحاصل محال، وقوله: « هب لي من الصالحين » لا يفيد إلاّ طلب الولد الواحد، وكلمة (من) للتبعيض، وأقلّ درجات البعضيّة الواحد، فكان قوله (من الصالحين) لا يفيد إلاّ طلب الولد الواحد، فثبت أنّ هذا السؤال لا يحسن إلاّ عند عدم كلّ الأولاد، فثبت أنّ هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأوّل، وأجمع النّاس على أنّ إسماعيل متقدّم في الوجود على إسحاق، فثبت أنّ المطلوب بهذا الدّعاء هو إسماعيل، ثمّ إنّ الله تعالى ذكر عقيبه قصّة الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح، هو إسماعيل».

ولا يخفى ما في هذا الكلام من ضعف البيان والاستدلال. ليس في دعاء إبراهيم ما يدلّ على طلب الواحد، ولكنّ أصل هذا الاستدلال ظاهر بيّن، وقد مرّ في الفصل العشرين والفصل الحادي والعشرين فراجعهما.

«(الحجّة السادسة): الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة. فكان الذبح بمكّة، ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح بالشام.

واحتجّ من قال إنّ ذلك الذبيح هو إسحاق بوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ أوّل الآية وآخرها يدلّ على ذلك. أمّا أوّلها فإنّه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنّه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ

رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ٩٩] أجمعوا على أنّ المراد منه مهاجرته إلى الشام ثمّ قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠١] فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلّا إسحاق، ثمّ قال بعده: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١٠٢] وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام. فثبت أنّ مقدمة هذه الآية تدلّ على أنّ الذبيح هو إسحاق. وأمّا آخر الآية فهو أيضاً يدلّ على ذلك، لأنّه تعالى لمّا تمّم قصّة الذبيح قال بعده: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧ : ١١٢] ومعناه أنّه بشّره بكونه نبيّاً من الصالحين. وذكرُ هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصّة يدلّ على أنه تعالى إنّما بشّره بهذه النبوّة لأجل أنّه تحمّل هذه الشدائد في قصّة الذبيح. فثبت بما ذكرنا أنّ أوّل الآية وآخرها يدلّ على أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

هذه الحجّة هي أوّل ما احتجّ به ابن جرير رحمه الله تعالى، وقد سبق في الفصل الخامس بعد الثلاثين التنبيه على ما فيه من الوهن الظاهر والوهم الفاحش، فراجعه.

«(الحجّة الثانية) على صحّة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام (من يعقوب إسرائيل نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله) **لا حاجة إلى تضعيف أمثال هذه الأخبار** «فهذا جملة الكلام في هذا الباب. وكان الزّجّاج يقول: الله أعلم أيّهما الذبيح. والله أعلم».

انتهى قول الرازي رحمه الله في هذا البحث. ولا يخفى أنّه رحمه الله لم يتعرّض للنقد والبحث، بل اكتفى بذكر دلائل الفريقين، ولم يبيّن عن نفسه على أيّ جانب هو، وهكذا فعل صاحب الكشّاف، ولكن في تقديمهما قول فريق وتكثير دلائله إشارة إلى ما هو الأرجح عندهما، والله أعلم.

(٣٧)

خلاصة من قول ابن كثير رحمه الله في تفسيره

اعلم أنّ العلاّمة ابن كثير رحمه الله تكلّم في هذه المسألة روايةً ودرايةً، وهو من الراسخين فيهما. وقد نقلنا منه نبذاً في غضون الفصل الثالث بعد الثلاثين ممّا يتعلّق بالرواية. والآن نذكر ما استدلّ به من القرآن والتوراة، وما أزال به توهّمات ابن جرير رحمه الله.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠١][١]:

«وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنّه أوّل ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتّفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصّ كتابهم أنّ إسماعيل عليه السلام وُلدَ، ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، ووُلد إسحاق عليه السلام ،وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة».

ههنا تسامح يسير فإنّ ذلك حين جاءته البشارة بإسحاق، وأمّا عمر إبراهيم عليه السلام حين ولد له إسحاق عليه السلام فكان مئة سنة، كما مرّ في الفصل السادس.

«وعندهم أنّ الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى بكره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً (إسحاق). ولا يجوز هذا، لأنّه مخالف لنصّ كتابهم. وإنّما أقحموا إسحاق لأنّه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرّفوا (وحيدك) بمعنى (الذي ليس عندك غيره) فإنّ إسماعيل كان ذهب به وبأمّه إلى مكّة. وهو تأويل وتحريف فإنّه لا يقال (وحيدك) إلاّ لمن ليس له غيره».

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ١٥ ـ ١٦.

وقد ذكرنا أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذي كان عنده في بئر سبع حتى ذهب به إلى المنحر، فأسكنه هناك. راجع الفصل الخامس.

« وأيضاً فإنّ أوّل ولد له من العزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار ».

ثمّ ذكر رحمه الله أنّ جماعة من أهل العلم ذهبوا إلى أنّ الذبيح هو إسحاق، فقال بعد ذلك:

«وما أظنّ ذلك تُلُقِّي إلاّ عن أحبار أهل الكتاب، وأُخِذَ ذلك مسلّماً من غير حجّة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنّه إسماعيل، فإنّه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنّه الذبيح، ثمّ قال بعد ذلك: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١١٢]. ولمّا بشّرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر ١٥: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود ١١: ٧١] أي يولد لهما في حياتهما ولد يسمّى يعقوب فيكون من ذرّيّته عقبة ونسل. وقد قدّمنا هناك أنّه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير، لأنّ الله تعالى قد وعدهما بأنّه سيعقب ويكون له نسل».

ثمّ قال: «وإسماعيل عليه السلام وصف ههنا بالحلم، لأنّه مناسب للمقام، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٢] أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه».

ثمّ قال: «وإنّما أعلَمَ ابنَه بذلك ليكون أهوَن عليه وليختبر صبره وجلَده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصّافّات ٣٧: ١٠٢] أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عزّ وجلّ. وصدق

ـ صلوات الله عليه ـ فيما وعد. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم ١٩: ٥٤ ـ ٥٥].

وذكر مستدَلّ ابن جرير رحمه الله، ثمّ قال: «هذا ما اعتمد عليه في تفسيره. وليس ما ذهب إليه بمذهب، ولا لازم، بل هو بعيدٌ جدّاً، والذي استدلّ به محمد بن كعب القُرَظي على أنّه إسماعيل هو أصحّ وأقوى، والله أعلم»[1].

لا يخفى أنّ ابن كثير رحمه الله أتى بأكثر الأدلّة الظّاهرة، ولم نجد في المتأخّرين من زاد عليها، فلا حاجة إلى استقصاء أقوالهم. ولكن نذكر في الفصل التّالي من أقوال المشهورين منهم ما يكفي للدلالة على مذاهبهم في هذه المسألة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٠ وقد ذكر رحمه الله قصة الذبح في كتابه (البداية والنهاية) وأن الذبيح إسماعيل عليه السلام، فقال: «وهذا هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل، لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ـ ولا سيما ههنا ـ قطعاً لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ـ وفي نسخة من المعربة: بكره ـ إسحاق، فلفظة إسحاق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، ذاك إسماعيل. وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ. وإسحاق والد يعقوب، هو إسرائيل الذين ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم، فحرّفوا كلام الله، وزادوا فيه. وهم قوم بهت، ولم يقرّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز. ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل...» (١/ ١٥٨).

(٣٨)
أقوال آخرين من مشاهير المتأخّرين
وسبب اكتفاء أكثرهم بمجرّد الترجيح أو الإشارة إليه دون القول بالقطع

لم أجد أحداً من مشاهير المفسرين يقطع بكون إسحاق هو الذبيح غير ابن جرير رحمه الله، فإنّه رجّحه وانتصر له. وأمّا الآخرون فإنّ بعضهم يذكر قولين مع إشارة خفيّة على ترجيح القول بكون إسماعيل هو المفديّ، وبعضهم يصرّحون بذلك.

في المدارك: « والأظهر أنّ الذبيح إسماعيل »[١].

وفي البيضاوي: « والأظهر أنّ المخاطب به إسماعيل »[٢].

وفي الجلالين: « وهو إسماعيل أو إسحاق قولان »[٣].

ورأيت رسالة للسيوطي رحمه الله مسمّاة (القول الفصيح في تعيين الذبيح)[٤]. سرد فيها روايات للفريقين ثمّ قال: «إنّه كان يعتقد أوّلاً أنّ إسحاق عليه السلام هو الذبيح، وأمّا الآن فصار متوقّفاً»[٥].

وهكذا في (الدّر المنثور) ذكر القولين من غير ترجيح لأحدهما. ولعلّه أراد بالتوقّف أنّه لا يقطع بأحدهما، وإن كان مرجِّحاً لكون إسماعيل عليه السلام ذبيحاً، كما يظهر من قوله في تفسير الجلالين[٦].

---

(١) مدارك التنزيل: ٤/ ٢٦.
(٢) أنوار التنزيل: ٢/ ٢٩٩.
(٣) تفسير الجلالين: ٥٩٤.
(٤) في المطبوعة: (الحق الصريح في..) وهو سهو.
(٥) الحاوي: ١/ ٤٩٨.
(٦) يلاحظ أن تفسير سورة الصافات للجلال المحلّي.

وأمّا البغوي والخازن فاكتفيا بذكر القولين مع الروايات[1].

والسبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ علماءنا رحمهم الله تعالى برآء من التعصّب لنبيّ من الأنبياء، ثمّ إنّهم لا يجترئون على القطع في تأويل القرآن ما لم يكونوا على بصيرة فيه، ثمّ إنّ المتأخّرين منّا على غاية مراعاة الأدب للسلف، فإذا وجد أحدهم اختلافاً من السلف في تأويل أمسك عن القطع بأحد وجوهه، واكتفى بالإشارة إلى ما هو المرجّح عنده. ومع ذلك من كان على بيّنة من أمره جاء بقول فصل. وفي اختيار ابن جرير ـ رحمه الله ـ أنّ إسحاق عليه السلام هو الذبيح لأكبر شهادة على أنّ المسلمين لم ينظروا في هذه المسألة نظر المتعصّب المعاند، وكذلك الشهادة في عدم القطع من بعضهم بأحد الجانبين.

هذا، وبالجملة فاختلافهم في هذه المسألة اختلاف أهل الإنصاف حسبما يؤدي إليه العلم والنظر وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة ٥٨ : ١١] وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف ١٢ :٧٦] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة ٢ : ٢١٣] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزّمر ٣٩ : ١٨].

وبالجملة فالاختلاف اليسير الذي تجد بين علمائنا في هذه المسألة هو ممّا يقوّي ما هو الثّابت عندنا، وهو أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذبيح.

---

(١) انظر تفسير البغوي: ٧/ ٤٦ ـ ٤٧، والخازن: ٤/ ٢١ ـ ٢٢.

(٣٩)
ذكر ما يُستدَلّ به من أحوال العرب قبل الإسلام وأقوالهم

قد مرّ في القسط الأوّل والثاني من الأدلّة ما هو مستنبَط من أحوال اليهود والعرب وأحوال معبدَيهما ومناسكهما، ممّا تشهد بأنّ الكعبة هي بناء إبراهيم، وإسماعيل الساكن عندها هو المقرَّب. ولقد كان فيما ذكرنا كفاية لمن يستدلّ بالقرائن التاريخيّة، ولكن نزيد على السابق كالتتمّة له وكالتفصيل لما أشار إليه القرآن حيث قال تعالى في أمر هذا البيت:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران ٣: ٩٧].

فاعلم أنّه لا شكّ في أنّ المراد ههنا بالآيات البيّنات هي الأدلّة الظاهرة المسلّمة، كما مرّ في الفصل الثاني بعد الثلاثين. فإنّه لا يخفى أنّ كونَ المنحر الإبراهيميّ ومسجدِه بمكّة، وتوارثَ ذرّيّتِه مناسكَه، وتتابعَهم عليها جيلاً فجيلاً، كلُّ ذلك كان في غاية الشهرة والتواتر. ولو لم يكن ذلك كان من المحال العادي أن تُجمِعَ العرب عليه، وتُذْعِنَ للحكومة الدينيّة لمن تولّى خدمة هذا البيت المحرَّم، وأن تكفَّ عن الحروب في شهور الحجّ مع تشتُّت قبائلهم، وتحاربُهم، ومع اتّخاذهم آلهةً وأنصاباً ينحَرون عندها. وإنّ في ذلك لأعظم تصديق لإجابة دعاء إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة وأسكن عندها ذرّيّته.

ولما كان تعظيم هذا البناء الإبراهيميّ قد رسخ في قلوب ذرّيّته بل سائر العرب لم يقدر أبرهة المتعصّب في نصرانيّته على صرف العرب عن حجّ الكعبة، فعزم على هدمها، كما ذكره الله تعالى حيث قال عزّ اسمه:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ

لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة ٢ : ١١٤].

فذلك ما علمنا من أحوال العرب من غير شبهة.

وأمّا أقوالهم في ذلك قبل الإسلام فمن المعلوم أنّه لم يبلغنا منها إلاّ نَزْر يسير. ومع ذلك نجد فيها ذكراً ممّا يدلّ على أنّ الكعبة هي بيت الله، وعندها المنحر الإبراهيمي حسبما وصف في التوراة، وعلى أنّ القربان إنّما هو بكره حسبما صرّح به التوراة، ولم يكن بكره إلاّ إسماعيل عليه السلام باتّفاق بيننا وبين أهل الكتاب. قال النّابغة في قصيدته المشهورة التي أقسم فيها بربّ الكعبة ـ وهي أكبر أيمانهم ـ فقال:

فلا لعَمْرُ الذي مسّحتُ كعبتَه ... وما هُرِيقَ على الأنصاب مِن جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يَمسحُها ... رُكبانُ مكّةَ بينَ الغِيل والسَعَدِ[1]

روي «الغيل» بالفتح والكسرة. رواه الأصمعيّ بالفتح وقال: الغَيل بفتح الغين: الماء، وإنّما يعني النابغة ماءً كان يخرج من أبي قبيس. ورواه أبو عبيدة بكسر الغين وقال: الغِيل والسعد هما أجمتان كانتا مناقع ماء بين مكّة ومنى[2]. وهذا الوصف يطابق ما جاء في التوراة في قصّة القربان، سفر التكوين (٢٢ : ١٣):

«فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش».

ولا يصدق هذا الوصف على الموضع الذي ادّعت له اليهود والنّصارى أنّه منحر إبراهيم عليه السلام.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٢٥.
(٢) انظر شرح القصائد العشر للتبريزي: ٤٦٢.

وعلى كلّ حال ذكر النابغة الكعبة بأوصافها الخاصّة من كونها بيت الله وموضع الأمن للنّاس حتى الطير. وذكرهُ إيّاها بموضعها عند الغيل والسعد لا يكون لمجرد تعريفها، فإنّ النّاسَ قد عرفوها كلَّ المعرفة، وشعراءُ العرب لا يصفون الشيءَ إلاّ بما يناسب المقام، وهذا مقام تنويهها، فالظاهر أنّه أراد الإشارة إلى سبب تقديسها، وهو كونها منحراً عند غابة أمسك فيها قرن الكبش الذي جعله الله فديةً لابن إبراهيم عليه السلام. وذلك تلميح لطيف إلى ما ذكر في قصّة الذبيح حسبما جاء به التوراة.

هذا، وذكر أميّة بن أبي الصّلت قصّة ذبح إبراهيم عليه السلام بصريح القول بحيث يخصّ بإسماعيل عليه السلام، وذلك قوله في قصيدته المشهورة[1]:

ولإبراهيم الموفّي بالنّذْ	رِ احتساباً وحاملِ الأجْزالِ
بكرِه لم يكن لِيصبرَ عنه	أو يراه في معشرٍ أقيالِ[2]
أبُنَيَّ إنّي نذرتُك لله	م شحيطاً فاصبر فدىً لك خالي
واشدُدِ الصَّفدَ لا أحِيدَ عن	م السكّين شدَّ الأسيرِ ذي الأغلالِ
وله مُدْيَةٌ تَخايَلُ في اللحم	م حذامٌ حَنِيَّةٌ كالهلال[3]
بينما يخلَع السرابيلَ عنه	فكّه ربُّه بكَبشٍ جُلالِ
فخُذَنْ ذا وأرسِلِ ابنَك إنّي	لِلّذي قد فعلتما غيرُ قالِ
والدٌ يَتَّقِي وآخَرُ مولو	دٌ فطارا منه بسِمْعٍ فَعَالِ
ربما تجزَعُ النّفوسُ من الأمـ	ـرِ له فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ

---

(١) انظرها في تاريخ الطبري: ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨؛ والديوان: ٤٤٠ ـ ٤٤٤.

(٢) في الديوان: لو رآه.... أقتالِ.

(٣) في الديوان: هُذام.

فصرّح بأنّ الذبيح كان بكره، وبكر إبراهيم هو إسماعيل بالاتّفاق بين المسلمين وأهل الكتاب، وأيضاً صرّح بكونه نذراً من أبيه، وهو المفهوم من القرآن، وأنّه لم يأمره الله بذبحه، كما مرّ في القسط الأوّل والثاني.

(٤٠)
الخاتمة في النظر الإجماليّ الجامع

كم من الحقائق أثيرَ غبارُ الباطل حولها، فيحتاج مَن حُبِّبَ إليه الصدقُ إلى تدقيق النّظر والتمييز بين الغثّ والسمين من المنقول، والرثّ والمتين من المعقول. وذلك ربما يُمِلّ المستمع ويَلبِس عليه الأمر، فأردنا أن ندلّك في هذا الفصل على طريق لا تحتاج فيه إلى شقّ النّفس، وهو الذي سمّيناه جوامع الأدلّة. وقد مرّ تفصيل منه في فصل (٣١) وههنا نذكره مختصراً بطريق جامع بين التوراة والقرآن فنقول:

إنّك ترى في التوراة والقرآن بعض أمور بيّنة في غاية الوضوح، ومن لطائف القرآن أنّه يذكر من هذه القصّة ما لا يوجد في التوراة، فإذا جمعتَ بينهما تبيّنت لك الحقيقة بتمامها.

أمّا التوراة فتجد فيها أنّ الذبيح هو وحيد إبراهيم عليه السلام، وأنّه بنى مذبحاً، واتّخذ مسكناً شرقيَّ بيت إيل، وأنّه قرّب ابنه على مقام مقدّس أراه الله إيّاه وهداه إليه. ولكن لا تجد فيها بياناً لمقامه، ولا لمقام هذا بيت إيل، ولا لحجّه وإسكانِ بعض ذرّيّته عنده للخدمة الدينيّة.

وأمّا القرآن فقد بيّن هذه الأمور بغاية الإيضاح وترى في ذلك إسماعيل عليه السلام صاحبه وشريكه.

ثمّ إنّك لا تجد في القرآن ولا في التوراة أنّ إسحاق عليه السلام جاء

من كنعان إلى هذا المعبد العظيم فضلاً عن سكناه عنده.

فإذا تصوّرتَ ما جاء فيهما لم تشكّ أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام الذي كان وحيداً لأبيه قبل ولادة أخيه إسحاق عليه السلام، وهو الذي جُعِل نذراً لخدمة البيت المحرّم بمكّة، كما قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة ٢: ١٢٥]. وأمّا أخوه إسحاق عليه السلام فبقي بكنعان وباركه الله هناك حتى انتقل ذرّيّته من تلك الأرض إلى مصر وكان ما كان من أمرهم.

وهذا الذي ذكرنا لا يُبهَم على مَن له أدنى مُسكةٍ من صريح العقل. ويقرُب منه ما ذكره أبو عمرو بن العلاء للأصمعيّ، كما مرّ في الفصل السادس بعد الثلاثين.

هذا، وفيه كفاية لمن يفرّق بين الصّحيح والسّقيم، والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة على نبيّه سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

الفهارس العامّة

١ ـ فهرس آيات القرآن الكريم

٣ ـ آل عمران

السورة الآية		الصفحة
٦٥ ـ ٦٦	﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ . . . وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾	٩١
٦٩	﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾	١٠٣
٧٠ ـ ٧١	﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾	٥٦، ٩٧
٩٦ ـ ٩٩	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ . . . وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾	٩٨
٩٧	﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾	١٢٧
٥ ـ المائدة		
١٣	﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾	٩٠

السورة الآية — الصفحة

السورة الآية	الصفحة
٣٧ ﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . . . لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾	٥٠، ٧٢، ١٠١
٣٩ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾	٨١، ١١٦
٤٠ ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾	٨٠
١٥ ـ الحجر	
٥٣ ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾	١٢٣
١٦ ـ النحل	
١٢٥ ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾	٩٨
١٩ ـ مريم	
٥٤ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾	٨٦، ١١٩
٥٤ ـ ٥٥ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ . . . وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ .	١٢٤
٢١ ـ الأنبياء	
٧٢ ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾	٨٠، ١٠٤

السورة الآية		الصفحة
١٠٩ ـ ١١١	﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . . .	٨٧
١١٢	﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾	٨١، ٨٥، ١١١، ١٢١، ١٢٣
١١٣	﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾	٨٧، ٨٩، ١٠٣
١٢٠ ـ ١٢٣	﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	٨٧
١٣٠ ـ ١٣٣	﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾	٨٧
١٨١ ـ ١٨٢	﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٨٨
٣٩ ـ الزمر		
١٨	﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .	١٢٦
٥١ ـ الذاريات		
٢٨	﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾	٨٤

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

❊ ❊ ❊

٣ ـ فهرس الإحالات على كتب اليهود والنصارى

أ ـ كتب اليهود:

الخروج

سفر اللاويين

العدد

التثنية

القضاة

الملوك الأوّل

المزامير

* * *

٤ ـ فهرس الشعر

(الهمزة)

(الباء)

(الدال)

(اللام)

٥ ـ فهرس الأعلام والجماعات والأمم

* * *

٦ ـ فهرس الأماكن

٧ ـ فهرس الكتب المذكورة في المتن

* * *

٨ ـ فهرس الألفاظ التي فسرها المؤلف

* * *

٩ ـ فوائد ومعارف

* * *

١٠ ـ فهرس المراجع المذكورة في الحواشي

أولاً:

ـ **أحكام القرآن للقاضي ابن العربي**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
ـ **إنباه الرواة للقفطي**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ.
ـ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
ـ **البداية والنهاية لابن كثير**، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.
ـ **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
ـ **تفسير البغوي**، دار طيبة، الرياض ١٤١٢هـ.
ـ **تفسير الجلالين**، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٤هـ.
ـ **تفسير الخازن**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
ـ **تفسير سورة الفيل للفراهي**، الدائرة الحميدية، أعظم كره، الهند ١٣٥٤هـ.
ـ **تفسير الطبري**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ.
ـ **تفسير القرطبي**، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ.
ـ **التفسير الكبير للرازي**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.
ـ **تفسير ابن كثير**، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٧هـ.
ـ **الحاوي للفتاوي للسيوطي**، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٨هـ.
ـ **الدر المنثور للسيوطي**، دار الفكر، بيروت ١٤١٤هـ.

- ديوان الأعشى، شرح محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.
- ديوان أمية بن أبي الصلت، صنعة عبد الحفيظ السطلي، دمشق
- ديوان ذي الرمة، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ديوان عدي بن العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد ١٩٦٥.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٧٧.
- زاد المعاد لابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ.
- شرح القصائد العشر للتبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٣٩٩هـ.
- قانون التأويل لابن العربي، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة، جدة ١٤٠٦هـ.
- كشف الظنون لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بيروت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ.
- مختارات ابن الشجري، تحقيق نعمان طه، القاهرة ١٣٩٩هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، دار الفكر، بيروت.
- معالم التنزيل= تفسير البغوي.
- معجم الأدباء لياقوت، دار الفكر، بيروت ١٤٠٠هـ.

- مفردات القرآن للفراهي، مطبعة الإصلاح، أعظم كره، الهند ١٣٥٨هـ.
- المهذب في اختصار السنن الكبير للذهبي، تحقيق حامد إبراهيم أحمد، القاهرة.
- الموطأ للإمام مالك، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ثانياً:

- **The Koran** translated by George Sale, Philadelphia and London. J.B. Lippincott company 1923.
- **The Pentateuch and Book of Joshua** critically examined by the Right Rev. John William Colenso, D.D. Bishop of Natal, London. Longman Green, Longman, Roberts, 1863

الفهـــرس

الصفحة

القسط الأول

في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب

القسط الثاني

في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده.

القسط الثالث

في الروايات وأقوال علمائنا رحمهم الله .

الفهارس العامة

* * *

هذا الكتاب

هذا الكتـاب ردّ على اليـهـود الذين زعـمـوا أن الذبيح إسحاق عليه السلام، وحرّفوا قصة إبراهيم عليه السلام في التـوراة بما يوافق أهواءهم. ومـؤلّفـه ـ رحـمـه الله ـ أحـد جهابذة علماء الإسلام وأهل العلم بالقرآن.

بيّن المؤلف في هذا الكتـاب مكانة مسـألة الذبح التي قـد يظنها بعض الناس قضية جزئية من التاريخ، ودلّ على جليل خطرها وأهميتـها لفـهم حـقيـقـة الإسـلام وتاريخـه وبعض شرائعه وحقيقة بعثة نبينا محمد ﷺ. ثم استدلّ على كون الذبيح إسماعيل عليه السـلام بستة وعشرين وجهاً، نصفها من القـرآن الكريم، والنصف الآخـر من التـوراة المحرَّفـة نفسها. ومعظمها دلائل جديدة لم يُسبق إليها.

وكشف عن كثير من الحقائق التاريخية التي تعمَّد اليهود كتمانها، ومن أعظمها المروة موضع القربان، فاحتجَّ المؤلف عليهم بنصـوص كتابهم. ثم فسَّر ما جاء في كتاب الله عز وجل، وفصَّل إشـاراته، وأوضح دلالاته، حتى عادت قـصـة إبراهيم وإسماعيل واضحة المعالم، مجلوَّة القَسَمات، متصلة الحلقات.

ومباحث الكتاب وفوائده موصولة بعدة علوم، فهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ودراسة العهد القديم، وعلم أسرار الدين، وتاريخ ملة إبراهيم.

والكتـاب كله نمط عـالٍ من التـأليف والتـحـقـيق وأدب الخلاف.